هذا ما حدث لكفر مفتاح

رواية بقلم

محمد نور الدين





مؤسسة الانتشار العالمي
للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
ت: ٠١٠٢٧٢١٢١٣

E.mail: Alentshar48@hotmail.com

الكتاب : هذا ما حدث لكفر مفتاح (رواية)

الكاتب: محمد نور الدين (مصر)

الناشر: مؤسسة الانتشار العالمي

الطبعة العربية الأولي: مصر سنة ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧٠٦٤

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٢٦-٠٠-٥

تصميم وجرافيك الغلاف:المهندس خالد نورالدين

الجمع والإخراج: وحدة الكمبيوتر بالمؤسسة

صرخ الحاج سعد في وجه مخاوفه الشخصية جـــداً، فـــهي مخاوف تتملكه وحده، لا يعاني منها غيره، فإذا فضح أمر زواجه من امرأة ثانية، وعلمت به زوجه أم سعدية، أو ابنته سعدية فستكون حتماً نهايته، أو علي أهون الأمور نهايته مع أسرته القديمـــة، لـــذا كـــرر المخاوف نفسها علي مسامع صديقه الحاج صالح محمـــود صـــاحب مستودع الإسمنت بمدينة فاقوس، كررها بصوت خفيض مضطـــرب كأنه يخشى أن يسمعه أحد، أو أن تحمله من شفتيه الرياح إلـــي آذان أسرته أو الحاقدين عليه من أهل كفر مفتاح: ماذا لو تسرب الخـــبر ياحاج صالح إلي أم البنات؟!! ..

لم يكلف الحاج صالح نفسه ويرفع عينيه الضيقتين من فـــوق ساقي امرأة سافرة، كانت تحمل طفلها الصغير، وتعبر من أمام بـــاب متجره، والذي يطيب للحاج سعد – وخاصة في الأيام الأخـــيرة – أن يسعى إليه ليجلس معه علي الكنبة الخشبية التي وضعها الحاج صالح هكذا علي واجهة الطريق العام، الذي يعبر من أمام مستودع الإسمنت متلذذاً بمتابعة سيقان النساء العارية أو صدورهن النافرة، وبين لحظة وأخرى يلكز الحاج سعد في فخذه قائلاً : ((انظر إلي نعمـــة ربـــك وتحسر علي الخفير الذي ترقد معه في فراش واحد، ها هي المـــرأة التي تمتع رجلها)).

تأفف الحاج سعد من هذا المزاح وهو يشعر بالضيق الكـامل؛ لعدم تقدير صديقه للموقف الصعب الذي يوشك أن ينزلق إليه .. أعاد سؤاله بصوت أكثر حدة وانزعاجاً: ((يا حاج أنت بالتـــأكيد لا تقـــدر خطورة الوضع، الذي يمكن أن أقع فيـــه، لـــو أخـــذت بنصيحتـــك وتزوجت من امرأة أخرى.. ستكون كارثة بالتأكيد!!)).

أخيراً استطاع الحاج صالح أن يقهر شـــهوته وإدمانـــه فـــي متابعة الأجزاء اللدنة من الغاديات والرائحات، والتفت إلي الحاج سعد بعينين أكثر ضيقاً ودهشة وكأنه يوبخه: ((ياحـــــاج ســـعد دع هـــذه المخاوف لرجل غيرك .. أنت تاجر تعتمد في حياتك علي المغـــامرة .. ماذا لو عرفت أم البنات بأمر زواجك من امرأة أخرى ؟!.. أنـــت ستتزوج من أجلها ومن أجل بناتها .. أنت لن تتزوج حباً في الـزواج أو في النساء .. لكنك ستتزوج لكي تنجب لهن ولداً ذكـــراً .. ولـــداً يحميهن بعد موتك .. يحمل أسمك ويحافظ علي ثروتك .. يدخل علي أخواته البنات في المواسم والأعياد)).

بدت مظاهر الارتياح علي وجه الحاج سعد وهو يستمع مـــن صديقه كلمات يشعر هو بها أكثر من غيره، بل ويتمناها حتى الموت، لقد أضحت مشكلة ليله ونهاره .. الابن الذكر .. لم يعد لديه أي شك في أن الحل الوحيد لجميع مشاكله مع أهل الكفر والعمدة والدنيا كلـــها والمستقبل الآتي هو أن ينجب طفلاً ذكراً، لقد فكر في هذا الموضوع منذ سنوات بعيدة ومنذ أن تكدس المال في خزائنه، كان يشعر بحـزن عميق وقهر كلما فكر أن هذا المال الكثير والذي استثمره ونماه بعرقه ومجهوده وذكائه، بل ومعاركه في السوق، سيؤول في يوم من الأيام إلي أزواج بناته .. إلي رجال ليسوا من صلبه .. إلي رجال غربـــاء .. خسارة كبيرة أن يذهب كل تعبه ومعاناته إلي رجال غرباء عنـــه، لو كان لديه ولد من صلبه لكان أسعد الناس جميعاً، وأكثرهم راحـة.. كل مجهوده وتعبه لن يضيع هباء سيكون لابنـــه هـــو .. أم البنـــات توقفت تماماً عن الإنجاب .. لم تنجب غير خمس بنات .. لـــم يعـــد يعلق عليها أي أمل لإنجاب الذكر.

لكنه مع ذلك كان يخشى من الاسترسال في التفكير في هـــذا الأمل، لم يكن يجرؤ علي التحدث به إلي أي مخلوق من الكفر فـأهل الكفر يحقدون عليه، فهم لم ينسوا بعد أنه كان منذ سنوات يعمل أجيراً عند العمدة الحاج أيوب، ويستكثرون عليه النعمة التي هو فيـــها الآن،

ويتمنون زوالها عنه؛ ولذلك فهم سيجدلون له من هذا الموضوع حبل مشنقة للقضاء عليه، سيفسدون نفوس أهل بيته عليه؛ لذا صمم بينه وبين نفسه علي كتمان هذا الأمل المحفوف بالمخاطر بين جنبيه .. لم يبح به إلى أي إنسان، إلى أن حانت الفرصة، عندما بدأ الأمر بمداعبة من صديقه الحاج صالح : ((ألم يحن الوقت بعد لتغير الماعون؛ حتى تنجب طفلاً ذكراً؟!! .. خسارة كبيرة أن يذهب تعبك ومالك الكثير هذا إلي يد الغرباء!!)).

احتار الحاج سعد لحظتها بماذا يرد عليه: هل يفتح له قلبه ويصارحه بما يخبئه في أعماقه من آمال وأحزان؟ .. أم يظل معتقلاً لكل مشاعره وأحاسيسه في تجاويف قلبه؛ محافظاً بذلك على أمنه العائلي وسلامته الاجتماعية؟ لذا لم يبادر بأية إجابة .. بل ظل ينظر إليه في صمت تام، كان يحملق فيه كأنه لم يع تماماً ماذا يقصد الحاج صالح بكلامه هذا .. بدا علي وجه الحاج صالح نفسه مشاعر الأسف والخجل؛ لأنه مازح هذا الرجل المخلص لزوجته وبناته في موضوع الزواج من امرأة أخرى .. فكر أن يعاجل بالاعتذار بطريقة لبقة، لكن الحاج سعد لم يسمح له بذلك، إذ سرعان ما حزم أمره وقرر – قبل أن يتراجع صالح عن رأيه ونصيحته – أن يفاتحه وأن يفضي إليه بمخبوء نفسه .. وازن الأمر على عجل .. رأى أن الحاج صالح هو أكثر الناس أماناً .. فهو صديق مخلص منذ مدة طويلة، ولم يجرب عليه لؤماً أو خداعاً، ثم إنه لا يقيم معه في الكفر، فهو من أهل مدينه فاقوس وسكانها، ولم يتعرف عليه إلا بعد أن صار غنياً، لم يكن يعرفه في أيام فقره، ولذا فمن غير الوارد أن يستكثر عليه النعمة والخير الذي يمرح فيه الآن كما يفعل معه أهل الكفر، ولن يحقد عليه أبداً، ثم إنه يمكن أن يساعده في البحث عن المرأة المناسبة للزواج منه، فهو إذا فكر في موضوع الزواج فلابد أن تكون العروس الجديدة من بلد بعيد عن الكفر؛ لأنه من الأفضل له أن يظل هذا الزواج سراً، علي الأقل حتى ينجب الولد، وبعدها لو انكشف أمر زواجه، وحتى لو عرفت به زوجته وبناته، وحتى لو عرف كل

الناس به، وحتى لو أذن به المؤذن من فوق سبع مآذن.. لن يهتم ولن يكترث، ما دام جاء بالولد، يمكنه لحظتها أن يتحدى أي مخلوق على ظهر الأرض، يتحدى زوجته وبناته، يتحدى الحاج أيوب مفتاح عمدة الكفر الذي استطاع أن يستعيد تفوقه ومكانته التي أوشك أن ينتزعها منه، لولا أن ظهر الأستاذ جمال صفى الدين مرة أخرى وتزوج ابنته نسمة، لم ينجب الحاج أيوب هو الآخر أي ذكر، لكنه جعل من جمال زوج ابنته ابناً له ((جمال هو الذي رفع رأس العمدة مرة أخرى في الكفر وحافظ على هيبته التي سلبتها منه.. لقد استطاع العمدة أن يقهرني بزواج ابنته من جمال صفي الدين .. لكنني حالما أحصل على الصبي سأقهره أنا .. سأدمره مرة ثانية .. سيكون ابني أنا.. ومن صلبي أنا .. سيكون له كل أموالي.. سوف أعلمه سأكمل تعليمه الجامعي سيصير طبيباً مشهوراً .. لا.. سأجعل منه محامياً مشهوراً ..سيكون أكثر شهرة من جمال صفى الدين...))

وفجأة صفعه خاطر كئيب، لم يشأ أن يصفعه وحده فأشرك صديقه الحاج صالح في الحال بذعر: ((لكن ما العمل لو أسفر زواجي الجديد عن بنات، ولم تلد لي هي الأخرى ولداً ؟!!))

لم يفاجأ الحاج صالح بالسؤال، ويبدو أنه كان يعد لكل شيء؛ فلقد سارع بإجابة حاسمة : ((هذا يتوقف علي ذكائك أنت، وعلى الماعون الجديد)).

أطلق الحاج سعد عليه سهام الدهشة والحيرة : ((ما قصدك ياحاج صالح؟!!)).

في الحال استدار إليه الحاج صالح بكل جسده، أهمل تماماً هوايته الأثيمة في ملاحقة الأرداف الرجراجة السابحة عبر الطريق، وبسط راحتيه الفارغتين أمام الحاج سعد موضحاً له بهدوء وبنبرة الحكماء ورزانتهم: ((خذ منى يا حاج سعد .. إن الذي يتحكم في

إنجاب البنات أو الأولاد هو الماعون .. المرأة .. أنت تزوجـــت أم سعدية فلم تنجب لك غير البنات .. في هذه المـــرة لـــن تـــتزوج إلا بامرأة تنجب الأولاد فقط .. وهذا يجعلنا نبحث عن امرأة تكون أمـــاً، امرأة مطلقة وقد أنجبت ذكوراً، أو أرملة مات عنها زوجها وأنجبـــت منه ذكوراً .. في هذه الحالة تكون قد تصرفت بطريقة صحيحة.))

لم يجبه الحاج سعد، بل أسرع بـــدس أصابعـــه فـــي جيـــب الصديري الداخلي وأخرج علبة السجائر..أسرع بفضـــها .. انـــتزع سيجارة منها .. أشعلها .. شفط منها شفطة هائلة حتى أوشكت علـــى الاشتعال الكامل .. بسرعة نحاها عن فمه .. واصل متابعـــة شـــفاه صديقه بتركيز شديد وعيناه تلحان عليه بإصرار وتوســـل أن يكمـــل كلامه حتى نهايته.

ويبدو أن الحاج صالح قد أكمل كلامه فعلاً، فهو لم يتطـــوع بإضافة أي حرف آخر، مما دفع الحاج سعد إلـــى أن يســـتنجد بـــه مستفسراً:((ولكن أين لي أن أجد مثل هذه الشروط كلها في امـــرأة، وفي الوقت نفسه تكون مستعدة لإبقاء الزواج منها ســـراً .. لحيـــن الإعلان عنه بعد أن تلد لي الولد ؟!))

لم يكن الحاج صالح من البلاهة ليخبره في الحـــال أن هـــذه المرأة موجودة فعلاً، وأنها أخت زوجته التي مات عنها زوجها منـــذ سنوات وترك لها ثلاثة أولاد ذكور، يتحمل هو تكاليف تربيتهم .. لـــم ينس أنه تاجر الأسمنت، وأن المكسب الحقيقي يتأتى من إثارة شـــهوة الزبون للشراء، وليس من جودة البضاعة نفسها؛ لذا أجابـــه بـــتريث وارتياب: ((عندما تنوي .. وتقرر أنت أمر الزواج .. بعد ذلك يمكن بالبحث المخلص العثور على ما نريد.))

لم يتردد سعد، بل قال بشجاعة وبتصميـــم عنيـــد –ابتـــهج لسماعه الحاج صالح– : ((لقد قررت يا حاج صالح الزواج من امرأة

أخرى، توكل على الله، ابحث معي عن المرأة التي تتوافر فيها جميع شروطي التي تعرفها، ويستحسن أن تكون من هنا من مدينة فاقوس.))

غمر الارتياح كل صدر الحاج صالح، وهو يعتدل في جلسته متابعاً بنهم المراهقين المسعور كل ما برز من لحوم المارات، وقد تفاءل خيراً بقرب إزاحة عبء أخت زوجته وأولادها ونفقاتهم التي لا تنتهي عن كاهله .. وهمس إلى سعد مردداً أكثر من مرة على مسامعه ومطمئناً: ((توكل على الله . . خلال أسبوع على الأكثر ستكون مع زوجتك الجديدة .. أقصد أم أبنك الذكر.))

((كذب من ادعى أن النساء كلهن من عجينة واحدة))..هكذا أكد الحاج سعد لنفسه هذا الرأي الذي استنتجه بعد أن تزوج المرأة الجديدة التي استطاع بدهاء وذكاء أن يستر خبر زواجه منها عن الجميع، حتى عن أم سعدية التي تجلس أمامه الآن في شكل يذكره دائما بشكل الغراب، فمنذ أن جمعته الجدران الأربعة والباب المغلق بزوج فاقوس وهو يتحسر ويندم على عمره الذي مر عليه من قبل دون أن يعاشر امرأة بحق وحقيقي، لقد اكتشف منذ الليلة الأولى أن أم سعدية لم تكن تنتمي في يوم من الأيام إلى قطيع النساء، فجسدها الأعجف الكالح وعظامها الحادة وفمها الذي يفوح دائما برائحة البصل أو الملوخية التي تفضلها صيف شتاء، فإذا لم تكن ملوخية خضراء كانت ملوخية جافة، وإذا قال لها غيري منها ردت عليه معاتبة ولائمة: ((هل ستتكبر على النعمة لأن الله أعطانا المال؟!! .. أليست هي التي سترتنا في أيام الفقر؟!!)) ثم إنها لا تستحم إلا في يوم الجمعة بالنسبة لها هو يوم النظافة والغسيل وعلى كل فرد في البيت أن يخلع ملابسه القذرة ويستحم، وباقي أيام الأسبوع فلا استحمام ولا نظافة، بينما زوج فاقوس النظافة والاستحمام بالنسبة لها واجب يومي، لا يمكنها التخلي عنه أو الإهمال فيه، بينما جسدها الممتلئ يفوح بروائح عطرة كأنها وردة بلدي بيضاء، لدرجة أنه شطح بخاله مرة وتساءل مستغربا: ((كيف يموت رجل له مثل هذه المرأة .. إنها تشفى العليل)) ، إنها المرة الأولى التي يري فيها امرأة .. حقيقة ترتدي له قميص نوم مثل الذي تلبسه الممثلات، في كل مرة تلبس له واحدا مختلفا عما قبله وأكثر إثارة، عندما كان يرى مثل هذه القمصان مع ابنته سعدية عندما كانت ترجع من السعودية طلب من أم سعدية في دلال وعشم أن تلبس له واحدا منها، فردت عليه متهكمة كأنه غبي: ((مثل هذا النوع لا يصلح لنا، لأنه لا يتشرب العرق، هذا يناسب الهوانم ممن لديهن الخدم، ولا يقمن بأي عمل في البيت)).

وأعطته درسا طويلاً مملاً جعلته يمتنع مرة أخرى عن طلب أي شئ يتعلق بتغيير هندامها أو الاهتمام بمظهرها، وكان راضياً بذلـــك دون تذمر، فلقد اقتنع تماماً أن هذا النوع النظيف من النساء إنمــــا خلــق للعمد والأفندية فقط .. فها هو العمدة الحاج أيوب مفتاح تزوج مــــن البندر امرأة مثل الموزة، الحاجة صفية بشرتها البيضاء تكاد تكشــف عما يتدفق تحتها من دم، مرة واحدة تجرأ وسلم عليها لــــم يصــدق لحظتها أنه أمسك بيد إنسان .. كانت مثل القطيفة ناعمـــة وطريـــة، وتذكرها في نفس اللحظة التي سلم فيها على زوجته الجديدة عندمــــا اصطحبه صديقه الحاج صالح لكي يراها قبل الزواج .. لم يصدق أن الله قد خلق اثنين من نفس عجينة الحاجة صفية زوجة العمدة .. لــــم يصدق لحظتها أن هذه المرأة يمكن أن تكون قد أنجبت ثلاثـــة أولاد من قبل، إن كل تضاريس جسدها متماسكة ونافرة وبارزة !!.. كأنــها بنت بكر لم يمسسها بشر، وفي اللحظة نفسها قارن بين نفسه وبيــــن العمدة، استبشر خيراً .. تملكه إحساس بالتحدي للعمدة .. شـــعر أن معركته مع العمدة لم تنته .. إنه بزواجه من هذه المرأة التي تشـــبه الحاجة صفية، سيكون الفارق بينه وبين أيوب مفتاح عمدة الكفر قـــد صار أضأل مما كان عليه من قبل، فإذا ما تحقق حلمه وأتت له هـذه الزوجة الجديدة بالولد، فلا شك أن الفارق بينهما سيكون قد تلاشــــي تماماً .. لا .. لن يتلاشى تماماً.. بالعكس .. سيكون هناك فارق كبير .. لكن لن يكون هذا الفارق لصالح العمدة علي أي حال . ســـيكون الفارق لصالحه هو ((الحاج أيوب لم ينجب ذكوراً .. أما أنا .. فـــإن هذا الطفل سيرجح كفتي بشكل نهائي.. وإذا كان جمال صفى الديـــن يمثل دور الابن للعمدة فإن ابني أنا سيكون من صلبي .. يومها أنـــا متأكد تماماً أن العمدة عندما يعلم بذلك سيدفن رأسه في التراب لـــن تكون لديه القدرة على مواجهتي والنظر في عيني .. ونذر عليَّ لــو طال عمر ابني، وعاصر العمدة سأجعله يبصق عليه أمـــام الجميــع عقب الخروج من صلاة الجمعة؛ حتى يتحادث بها الجميع .. سأجعل العمدة يموت قهراً وهماً.. سأجعل ابني أفضل أولاد الكفر .. سـأجعل

منه أغني أغنياء الكفر .. لن أرتاح إلا إذا صار في يوم من الأيـــام مالكاً لأرض الكفر كلها.. وأولها أرض الحاج أيوب))

هتف بداخل الحاج سعد هـــاتف متحمـــس ملتـــهب بـــالحقد والمرارة : ((ولماذا لا تبدأ في التفكير في ذلك من الآن؟... لمـــاذا لا تبدأ في شراء الأراضي له من الآن؟!!))

وبالرغم من أن حماس النداء انتقل إلى مشاعره وأحاسيســـه بالتبعية، وأوشك أن يستجيب لرغبته المتعجلة .. إلا أنه تراجع فـــي اللحظة الأخيرة متوجساً حذراً .. وهمس لنفسه متمهلاً : ((لم يحـــن الوقت بعد .. يجب أن أنتظر حتى يأتي الولد وأراه بعيني وأمســـكه بيدي..عندما يتحول حلمي وأملي إلى حقيقة لها لحم ناعم طـــري .. عندما يملأ صوته أذني .. عندما يتبول ببوله الطاهر علـــى أنظـــف جلابيبي .. في ذلك الوقت فقط سأنطلق كالصـــاروخ لأجمـــع كـــل أراضي الكفر له .. أما الآن فلا .. يجب أن أتمهل لثلاثة أشـــهر .. والحمد لله لم يعلم أحد بزواجي .. لم يبق إلا القليل .. وذلك بفضـــل زوج فاقوس الأصيلة..نوال..))

لقد رضيت منه بالقليل من وقته المتاح .. حتى لا ينكشـــف أمره أمام زوجه القديم وبناته .. رضيت منه بساعات القيلولة .. وقت الظهر يذهب إلى مسكنها .. يتناول معها الغداء ثم يختلي بـــها فـــي حجرة نومها لساعتين أو ثلاث يومياً .. كان يحرص دائما علـــى أن يبيت مع أم سعدية في الكفر .. كان حريصاً على عدم تغيير عادتـــه معهم .. في أحيان قليلة يزعم لهن أنه سيسافر إلي بـــور ســـعيد أو الإسكندرية للتعاقد على صفقات الأسمنت .. ولكنه في الحقيقة كـــان يقضي معظم تلك الليالي في فاقوس في بيته الثاني .. في الجنـــة .. كان يشعر بأنه في الجنة عندما يكون بالقرب من نـــوال .. فالفـــارق كبير جداً بينها وبين أم سعدية..((نوال تنظر إليَّ وتعـــاملني معاملـــة حانية رقيقة .. تشعر دائما بأنها مجرد زوجة ناعمة محتاجـــة إلـــى

زوج يحتويها ويحميها..مجر أنثى مولعـــة بذكرهـــا)) لا يهمـــها أن تعرف منه أي شئ لا يود هو أن تعرفه .. لا تحب أن تتدخل فيما لا يعنيها من أمر تجارته وصفقاته وماله .. لم يلحظ عليها أبداً أنها تقلق من أجل الغد .. لم تطلب منه مرة أن يؤمن مستقبلها معه .. أبداً لـــم تفكر مجرد تفكير في هذا الأمر .. كل همها هو إسعاده فقط .. راحته فقط .. في فراشه وفي طعامه .. وحياته وسلامه مع أسرته القديمـــة بالكفر .. فهي حريصة على أن تراجع ملابسه وهندامه قبل أن يخرج من عندها .. تتفحص وجهه بدقة حتى تطمئن إلى أن أحمر شفاهها لم يعلق بعضه علي شفتيه أو خديه أو على رقبته .. كذلـــك تتفحـــص ملابسه بدقة .. وخاصة الداخلية منها حتى تتأكد أنها قد خلـــت مـــن بقايا شعرها الأسود الناعم .. وخاصة أنه كـــان يلـــذ لـــه دائمـــا أن يتحسسه بإعجاب شديد وانبهار.

حانت منه انتباهة إلى أم سعدية التي تجلس أمامـــه .. أدرك في الحال أنه يجلس مواجهاً لها في بيته في الكفر .. وأن ظلام الليـــل يطل عليهما من النوافذ .. وأنه كان يسبح شارداً .. واعتقد أن شروده هذا لا ينتبه أحد إليه ممن حوله .. متناسياً أن أم سعدية امـــرأة فـــي جوهرها .. وأنها تمتلك موهبة الزوجـــة وموهبـــة الأم .. فخمـــس وعشرون سنة من العشرة معه كفيلة بأن تجعل من قلبها ومشـــاعرها مجرد (ترمومترات) بالغة الحساسية والدقة .. لقياس كـــل حـــس أو شعور يمرق عبر جلد زوجها، أو رأسه النظيف من الشعر .. والتـــي تعرف هي وحدها أكثر من أي مخلوق آخر كيف يفكر ســـعد بـــهذا الرأس .. لذا كانت تجلس أمامه بسحنة مكفـــهرة غاضبـــة .. تـــردد الحاج سعد في أن يسألها عن السبب الذي يجعلها تجلس هكذا مثـــل البومة .. كأنها لملمت الكآبة من فوق وجوه كل البشر لـــتزين بـــها وجهها .. لكنه قرر ألا يسألها عن أي شئ .. وأنه من الأحسن له أن ينهض علي الفور ويلقى بجسده في فراشه الشوكي هـــذا، ويغمـــض عينيه ليحلم بزوجته نوال حتى يأتي الصباح ليركب سيارته النصـــف نقل، ويفر بها إلي فاقوس .. حيث يعيش حياته الحقيقية .. بعيداً عـــن

النكد والقرف والبوم والغربان التي تعشش في وجـــه هــذه المــرأة الفظيعة، التي تتعامل معه كشريك فظ في حياته وتجارتـــه .. فــهي دائما تحاول التسلل بطريقة أو بأخرى إلى مكنـــون تفكـــيره وأمالـــه المادية لتعرف كل شئ .. وفي الوقت نفسه تكثر له من التحذير مـــن الوقوع في الخطأ حتى لا يضيع أموال البنت .. دائما تذكره أن المال ليس ماله .. إنما هو مال سعدية وهو مجرد وكيل عنها في هذا المال .. كأنها تشير إليه دائماً من طرف خفي بأن يحذر من الغرور الـــذي يركب بعض الرجال الذين يتدفق عليهم المال بعد فقـــر .. فيســـارع بتغيير وتجديد كل شئ قديم لديه وأوله الزوج .. لذلك صار يمل كـــل الملل من حديثها معه .. فهي لا تعرف كيف تتكلم معه الكلام الـــذي يريحه ويسعده مثلما تفعل نوال .. ولولا أنه يصمم علـــى أن تنجـــح خطته في الاحتفاظ بسر زواجه حتى يصفع الجميع بميـــلاد طفلـــه؛ لكشف لها في الحال ما يخفيه .. ولتضرب رأسها في ألف حـــائط .. ولكن من الأفضل أن يتحمل ما يعانيه في هذا البيت القديم ولكن إلـــى حين .. بعد الصبي لن يأتي إلي الكفر إلا قليلاً جداً؛ لأن ابنه الطفـــل الصغير سيكون في حاجة شديدة إلي وجود أبيه .. أما البنات هنا فـــي الكفر فلم تعد أية واحدة منهن في حاجة إليه..لقد صارت أصغرهـــن في الصف الأول الإعدادي..لقد صارت حاجتهن إلي ماله فقط..وهذا أمره سهل..

عندما شرع يستعد للنهوض من جلسته هذه للتوجه إلي فراشه .. واضعاً راحتيه الاثنتين علي الحصيرة التي يجلس عليها منحنيـــاً فوقها، وقبل أن يرفع جسده متكئاً علي ساعديه سمع أم سعدية تخاطبه بصوت مبحوح: ((أتنوي النوم من الآن؟!! هل أصبح الجلوس معنـــا مجرد واجب ثقيل علي نفسك؟!!))

للحظات قد تكون طويلة استمر الحاج سعد جاثياً علي ركبتيه مستنداً علي كفيه .. حاول التخمين عما خلف الكلمات .. ماذا تقصـــد أم سعدية بالضبط بتلك الكلمات .. المستهجنة المحتجة .. أهي مجـــود

عتاب زوجي؟ .. أهو مجرد دلال زوجة قروية جافة ثقيلـــة الظـــل، تمهيدا لإثارة زوجها ثم اقتياده إلى فراش الزوجية لتحصل منه علـــى حقها المشروع في الجماع بالقوة؟ وخاصة أنه الآن لم يعد لديه أيـــة رغبة جنسية تجاهها على وجه التحديد .. لقد صارت بالنســـبة لـــه الخبز الجاف جدا، الذي يصعب عليه ابتلاعه من قبل إنسان شبع.. أم ماذا تقصد بالضبط؟ .. لقد فكر في أكثر من فكرة .. لكنـــه اســـتبعد تماما أية علاقة بين هذا النعيق الذي سمعه وبين سر زواجه من نوال التي يحتفظ بها في بيت فاقوس .. لكنه في نهاية تخميناته قـــرر أن يسألها مباشرة .. يقطع العرق ويسيل الدم ليرى مـــاذا ترمـــي هـــذه المرأة بتلك الأسئلة الغامضة .. نظر إليها مغتاظا وقد عقد حاجبيـــه الكثيفين فوق أنفه، وقال ناهرا لها: ((ماذا تقصدين بكلامـــك الفـــارغ هذا؟!!))

لكن .. ما أن سألها حتى انفجرت باكية صارخة ملتاعـــة – كأنها كانت قدرا يغلي ويوشك أن ينفجر منتظرا من ينزع عنه الغطاء المحكم الثقيل: ((أهذا جزائي يا قليل الأصل؟!!أهذه هي مكافأتي على صبري معك طوال هذا العمر؟!! تتزوج امرأة ثانية من فاقوس؟!! .. ماذا ينقصك؟!!.. هل لك أن تخبرني عما ينقصك؟!! .. ماذا تتمـــيز هي عني؟!! .. هل تزيد عني رجلا أو يدا؟!! .. قد يكون معك العذر لو لم أنجب لك .. لكن الحمد لله .. أنجبت لـــك خمـــس عرايـــس .. يتمني أي إنسان أن يقبل تراب أرجلهن .. لكن مـــاذا أقـــول ؟!! .. رجل ناقص .. رجل عيناك فارغتان .. كثرة الفلوس معك جعلتـــك تتمرد علي النعمة .. حسبي الله ونعم الوكيـــل .. حســـبي الله ونعـــم الوكيل فيك يا سعد يا ابن خضرة .. تأكلني لحما وتلقي بي عظما!!))

في مواجهة هذا الانفجار البكائي المفاجئ .. لم يستطع ســـعد الحراك .. جمد مكانه .. جمدت ملامحه .. التصق لسانه بسقف فمـــه الواسع .. سقط في هوة عميقة من الذهول الحقيقي .. لم يصـــدق أن هذه الكلمات التي يسمعها تصدر عن أم سعدية .. أم البنات هي التـــي

تتجرأ عليه وتسبه ؟!! .. أم سعدية التي كانت ترتعش أمامـــه مـــن مجرد رؤيته متجهماً عاصفاً ؟!! .. الآن تتحول إلى نمر شرس جائع يوشك أن ينقض عليه ناشباً كل مخالبه النارية في لحمه وعظامـــه .. لا تريد أن تصمت أو تتوقف عن الصراخ والسب له والدعاء عليه .. كأنها تستجمع له كل سباب العمر لكي تصبه عليه مـــرة واحـــدة .. كأنها أمسكت بفرصتها التي كانت تنتظرها منذ أزمان بعيدة ..لا تريد أن تلتقط أنفاسها وتهدأ حتى يتمكن من أن يشرح لها الســـبب الـــذي جعله يفعل هذا .. ويعرف منها كيف عرفت بهذا السر، ومـــن هـــذا الحاقد الحقير الذي أراد أن يخرب عليه بيته، يفضحه قبل أن يحقـــق حلمه الكبير ويأتي الصبي: ((لو عرف السر بعد مجيء الطفل لكـــان موقفي الآن قويا .. لكن هذه المرأة لم تزل تصرخ! .. لم يعد ينفـــع معها صراخي أو تهديدي لها)).

لقد فقد القدرة علي أن ينطق ولو بحرف واحد في مواجهـــة هذا الكم الهائل من الصراخ والسباب .. فكر أن يقاطعها بأية وسيلة، ويقوم بعرض وجهة نظره والأسباب الحقيقية التي دفعته إلي الـــزواج .. وأنه لم يفعل ذلك إلا من أجلها هي والبنات .. لكي يأتي لهن بطفل يخلفه بعد مماته ... لكنه أدرك أن مجرد شرح الأســـباب فـــي هـــذا الوقت بالذات سيكون نوعا من الاعتذار عن الخطأ الذي ارتكبه مـــن وجهة نظرها .. بينما هو لم يعد لديه أي شك بأن ما فعله إنما هـــو الصواب بعينه .. بل وكان من الواجب عليه أن يفعله منذ زمن بعيـــد .. ما كان عليه أن يراعي أي خاطر لهذه البومة التي تسبه وتتجـــرأ عليه .. لذلك قرر أن يظل محتفظا برجولته السابقة في مواجهتـــها .. وما دام السر الذي كان حريصا علي ستره قد عرف لمن يهمه الأمـــر .. فلم يعد هناك ما يخشاه .. ولتضرب رأسها ألف مرة في أصلـــب صخرة .. ولأن الكلام معها قد يريحها .. فهو لن يريحـــها أبـــدا .. سيجعلها تندم طوال عمرها علي كل ما تفوهت به في وجهه الليلة .. سيلقنها درسا لن تنساه ((بيت فاقوس الآن أولى بي)) .

لذا نفض نفسه واقفا .. بوجه حجري متجهم يطفح بـالغضب والسخط .. لم يكتف بهذا بل أسرع باصقا علي وجهها قبل أن يغـادر بيته في صمت كامل .. واثبا بتوتر إلي سيارته النصف نقل .. إلـى فاقوس .. إلى بيته الثاني .. إلي الصدر الحنون .. الجنـة .. لعلـه ينسى ملامح هذه البومة..

وانطلق بسرعة البرق..كأنه لن يرجع إلي الكفر مرة ثانية.

تشكل وجه سعدية خريطة هم قاسية التضاريس منذ اللحظـــة التي أقبلت أمها إليها مهرولة فيما يشبه الجنون.. كان لديهم جميعـــا- قبل مواجهته – بقية من أمل .. توقعوا أن يرتد عن فعلته خجـــلا .. توقعوا أن يعتذر لهم جميعا، ويطلق تلك المرأة التي ضحكت عليـــه وتزوجته من أجل ماله .. في الحقيقة توقعوا أشياء كثيرة .. لكنهم لم يتوقعوا أبدا تلك الشراسة التي تصرف بها مع أمهم .. لذا اســـتحالت عينا سعدية إلى نبعين فوارين بالمرارة .. بينما صار فمـــها بركانـــا نشطا لا يتوقف عن قذف حرقة أعماقها وقهرها الدفين في تجاويفـــها منذ طفولتها، وسخرية زميلات المدرسة منها، ومعايرتهن لها بأبيـــها (سعد الأقرع) مرابع زريبة العمدة .. كانت تصرخ في وجه زوجـــها الدكتور أنور حسن مرة .. ثم تفح هجيرا في وجه أمـــها مـــرات .. عوت في وجه زوجها مستفزة له ناكشة فيـــه رجولتـــه الخـــامدة : ((ألست رجلي ؟!!.. لماذا لا تتدخل وتحمي أموالي ؟!!.. إنها أمـوال أولادك .. لا يمكن أن تقف هكذا صامتا.. بينما امرأة أخرى تضحـك على أبي وتستغل طيبته وسذاجته وتجرده من أموالي..تعبـــي..ثمـــن اغترابي.))

أجابها زوجها بثورة مفتعلة: ((وماذا على أن أفعـــل ؟!! .. أنت المخطئة في كل الأحوال .. لماذا أعطيت أبـــاك أموالـــك دون حساب ؟!! .. لو لم يكن لديه المال لما فكر في الزواج مـــن أخـــري ويتخلى عن أخلص زوجة في الوجود!!)).

قالها هو يشير إلي أم سعدية، مما جعلـــها تطـــور نشـــيجها المكتوم إلي بكاء حار مستعر، كاشفة رأسها ناظرة إلي السماء داعيـــة علي سعد ابن خضرة الذي أكلها لحما وتركها عظما .. ثم اســـتدارت إلي ابنتها سعدية لتطمئنها من بين دموعها وبإصرار وتأكيد متوحش:

((فلوسك يا سعدية سترجع .. سترجع كلها .. لن أسمح بأن تأخذ منها زوجة فاقوس قرشا واحدا.. حتى ولو أدي هذا إلى أن أقتله أنا بيدي، وأدخل السجن))

قاطعها الدكتور أنور موضحا بهدوء مفاجئ: ((لـــن يصـــل الأمر إلى القتل أو السجن-لا سمح الله- يا خالة..باختصار شـــديد.. حق سعدية زوجتي سيعود إليها إما بالتفاهم مع عمي الحاج سـعد..أو عن طريق المحكمة والقضاء، لو رفض التفاهم والحل السلمي))

قاطعته سعدية هادرة بلوعة وأسى : ((هل سيصل الأمر بـــي إلي الوقوف في وجه أبي أمام المحكمـــة ؟! .. هــل هــذا جزائـــي ياأمي؟!.. أفعل معكم خيرا لينقلب علي شرا!!))

صاحت أمها بمرارة دامعة: ((ليتك لم تذهبي إلي السـعودية!! .. ليتك لم تأتي بالنقود ..لقد كنا فقراء .. لكننا كنا سعداء .. لولاهـا ما فكر أبوك في النظر إلي امرأة أخري))

لم تتمالك سعدية نفسها من الغيظ، فانفجرت محتجة في وجـه أمها: ((أنا لم أسافر وأغترب كي يتزوج أبي من زوجة ثانية.. أنا لم أعطه مالي إلا لكي يستثمره لي .. المال مالي أنا وحدي .. لا يحـــق له أن يتصرف فيه لنفسه .. لقد تساهلت معه لأنه أبي .. كنت أعتقـد أنه يتصرف فيه لصالحي .. ولكي ينفق عليك وعلي أخواتي البنـــات .. لكني .. يبدو أنني كنت بلهاء .. بعض الناس همـــس فـــي أذنـــي محذرا من وقوع ما وقع .. لكني كنت ساذجة .. لـــم أســـتمع إلـــي نصائحهم .. لكن من الآن لن أترك معه قرشا واحدا .. سأستعيد كـل أموالي منه .. سأستردها جميعها .. أنـــا وزوجـــي وأولادي أحــق بمالنا))

أنقلب قلب الدكتور أنور إلي راقصة ليل خبيثة لمجرد سـماع الكلمات الأخيرة من زوجته سعدية .. اكتشف أخيرا أنها ليست كتلـــة

من الاستسلام المطلق لأبيها كما كان يعتقد.. رقص قلبه ملتهبا بلــون الحقد .. متوهجا بلون الشماتة .. لم يكن المال الذي قد يعـــود إلـــي زوجته وإليه هو الذي يطربه .. بل الشماتة في سعد الأقرع .. تخيله وقد سحبت منه هيبته المالية .. سيعود حتما كمـــا كـــان .. قبـــل أن تذهب سعدية إلي السعودية وترسل إليه المال .. كما حكي له البعض من أهل الكفر .. كان شيئا مهملا .. كان يرى طوال النهار مشـــمرا عن ساقيه مهرولا خلف زوجين من الحمير المحملين بســباخ وروث البهائم من معلف العمدة الحاج أيوب مفتاح .. لحظتها لن يحزن عليه أبدا .. لن يرثي لحاله .. بل سيذكره دائما بالمر الذي سقاه له قطــرة بعد قطرة .. سيطلق زمام كراهيته له .. تلك الكراهية التي زرعـــها في قلبه سعد نفسه .. ومنذ الأيام الأولي التي تقدم فيها الدكتور أنــور حسن للزواج من سعدية ابنته .. فبالرغم من أنها ليست علي أي قدر من الجمال .. مما يجعل سعرها في سوق النساء المطلوبات للـــزواج لا يزيد عن سعر نعجة .. إلا أن أباها لم يرحب به في الحال .. بـــل راح يضع في طريقه الكثير والكثير من الشروط والعقبات .. كـــــان دائما يردد عقب كل شرط من تلك الشروط أنه إنما يفعل ذلك حتـــى يحافظ علي حق ابنته .. ولأن الدكتور أنور كان أكثر خبثا منـــــه .. وكان أكثر طمعا في مال سعدية أكثر من أبيها .. وكان يدرك تمامـــا أن الحاج سعد إنما يفعل ذلك حتى يحتفظ بابنته ومالها لنفسه مـــدى الحياة .. وأنه يبخل بها وبمالها علي أي رجل غيره؛ لـــذا قـــرر أن يتحمل .. قرر أن يقبل كل شروط سعد مهما كانت جائرة .. لذا قبـــل أن يكون المهر ثلاثة آلاف جنيه .. وأن يكون مؤخر الصداق عشـــرة آلاف جنيها .. كان الزواج بالنسبة لكليهما صفقة .. كل واحد منـــــها ينوي أن يكسبها .. فالدكتور أنور دكتور بيطري .. ألم بمعلومـــــات وافية عن أموال سعدية وحكايتها بالضبط .. وذلك عندما كـــان هـــو الدكتور البيطري المكلف بالإشراف والعناية الطبية لدجاج مزرعـــــة سعدية وأبيها .. كان يأتي إلي المزرعة ثلاث مرات فـــي الأســبوع الواحد كما ينص العقد الذي وقعه معه سعد عندما أنشأ هذه المزرعـــة .. وما أن علم بخبر طلاقها من زوجها الأول حتى تضخمت أحـــلام

الغنى في ذهنه .. لقد أيقن بينه وبين نفسه أن الزواج من سعدية سيكون الحل لجميع مشاكله المادية والنفسية .. فهو خريج جديد من كلية الطب البيطري .. ومرتبه لا يكفيه هو شخصيا مصاريف خاصة وسجائر ومواصلات .. وهو في الوقت نفسه الابن الأكبر لأسرة فقيرة تتكون من أبيه المزارع وأمه وإخوته الخمسة .. بهذا لن يكون أمامه غير واحد من حلين .. فإما أن يسافر إلى الخارج .. وهذا أمر أكثر من صعب .. لأنه علي الأقل لن يستطيع تدبير أكثر من ثلاثة آلاف جنيه مصاريف السفر و(الفيزا) .. واحتمال الفشل بعد ذلك وبعد كل هذه المصاريف ما زال واردا وقائما .. أما الزواج من سعدية فهو حل شبه مضمون إن لم يكن مضمونا تماما؛ لذلك استمات في الزواج من سعدية .. اعتبرها صفقة عمره .. لم يفكر أبدا في التراجع عن إتمامه، قرر أن يكون كقرادة الحيوانات .. حتى عندما اعترضت أمه بشدة عليها لأنها متزوجة من قبل .. وأن ابنها الدكتور لا يجب أن يتزوج من امرأة مطلقة .. فهو دكتور وشاب .. ولابد من أن يتزوج من فتاة عذراء وبكر ومن عائلة محترمة .. لم يستمع لأمة .. بل سخر منها بينه وبين نفسه .. في الحقيقة سخر من أفكارها القديمة عن الدكاتره .. لم تستطع أن تستوعب بعد مستجدات هذه الأيام وأثر المال .. كما أنه لم يصغ إلي بعض أصدقائه ممن لمح له بأنها ليست جميلة .. وأنها لا تسيل لعاب الرجل في فراشه .. أخرج لهم جميعا لسانه ساخرا منهم قائلا: ((عندما تطفأ الشموع تتساوى جميع النساء))..

صارحه البعض بأن أباها رجل لا يطاق .. إنه رجل نذل لا يمكن التعامل معه .. إنه محدث نعمة، وسيسمم بدنه كي يحصل على قرش واحد منها .. لكنه قرر بينه وبين نفسه أن يخادع الحاج سعد .. سيتحمل ثقل ظله وكلامه الجارح .. لن يغضب منه .. حتى بعد الزواج عندما كان يردد له دائما بين وقت وآخر أنه تفضل عليه وقبل زواجه من ابنته بالرغم من فقره .. وكان يردد له أنه ضحى كثيرا عندما وافق على زواجه من سعدية .. كان يبتسم أنور .. لم يكن يرد

عليه . لقد قرر أن يربح الصفقة .. حتى بعد أن أنجـب مـن ابنتـه طفلين كان يواصل ذبحه بهذا الكلام السام..

في إحدى المرات افتعل معه نزاعا، وهدده بضـرورة دفـع مبلغ إيصال الأمانة الذي أخذه عليه عندما تقدم للزواج من سعدية منذ ثلاث سنوات .. فلم يكن الدكتور أنور يمتلك الثلاثة آلاف جنيه مـهر سعدية الذي طلبه سعد منه .. واقترح أن يعطى الحاج سعد إيصـال أمانة بالمبلغ .. وبعد أن فكر سعد في هذا الموضوع .. قرر الموافقة .. متظاهرا بالطيبة وإظهار حسن النية تجاه زوج ابنته الجديد حتـى ينفي عن نفسه الإشاعة التي تتردد علي ألسنة أهل الكفر من أن سعدا طلق ابنته ولن يزوجها أبدا طمعا في أموالها .. وفي الوقـت نفسـه أدرك أن إيصال الأمانة سيجعل من زوج ابنته عجينه لينة في يديه .. سيتمكن من تشكيله .. ومن إذلاله كلما شاء.. وكذلك سيوفر الأجـر الذي يتقاضاه منه للإشراف علي مزرعة الدواجن .. سيفكر في زيادة مساحة المزرعة .. سيوكل أمر الإشـراف عليـها كليـة للدكتـور البيطري الذي سيقيم في الكفر بشكل دائم .. في البيت الحجري الـذي بناه وكتبه باسم ابنته .. حتى يحفظ لها حقها من أن يطمع فيه زوجها الجديد .. فالدنيا لم يعد بها أمان.

وكم ضاق أنور بزوجه سعدية لهذا الاستسلام الكـامل لإرادة أبيها .. لقد كل وتعب من تكرار نصحها بضرورة محاسـبة أبيـها ومعرفة أموالها .. كان يردد عليها بأن صغارها أحق بهذا المال مـن الآخرين .. قال لها محذرا بأن مالها سيقسم بعد موته كميراث بيـن الجميع .. المال مالها، ولا يجب أن تفرط فيه إلي أي مخلوق حتـى ولو كان أبيها .. لكنها كانت في كل مرة تصده بطريقة أو بأخرى .. حتى يأس منها وصار يستشعر تجاهها نفورا واشمئزازا .. أوشك أن يسلم تماما بخيبة أمله وبأنه خسر صفقة عمره الذي ضحى بكل شـئ من أجلها.. وأصبح يردد بينه وبين نفسه المثل الشعبي ((يا آخذ القرد علي ماله .. بكره يروح المال ويبقي القرد علي حاله)) صار مقتنعـا

تماما بهذا المثل .. ندم لأنه لم يستمع إلـــي تحذيـــرات الآخريـــن .. تأسف أكثر لأنه لم يستجب إلي رجاء أمه بعدم الزواج من هذه المرأة المطلقة .. صار عصبيا طوال الوقت في بيته الذي أمسى يذهب إليـه في وقت متأخر .. ثم إنه لم يعد يطيق أن يلامس جسده جسد سـعدية في فراش واحد .. كان يتعلل ببكاء الأطفال .. ويذهب للنـــوم فـــي غرفة أخرى .. كان يشعر بالهزيمة في مواجهة أطماعـــه .. زادت أحقاده وتفاقمت علي سعد .. لقد انتصر عليه .. فاز هو بالصفقـة .. ولكن ما كان له أن يفوز لولا هذا الاستسلام والتسليم المقيـــت مـــن جانب سعدية .. وصار بين نارين .. يقف حائرا مضطربا بين فكـــي تمساحين فاغرين .. حياة زوجية مقرفة مـــع زوجـــة لا تحبـــه، ولا تستجيب لنصائحه باسترجاع المال من أبيـــها .. ولا هـــي جميلـــة تعوضه عن شخصيتها الضعيفة .. وكذلك لا يمكنه أن يفكر مجـــرد تفكير في الطلاق والانعتاق منها ومن سجن أبيها .. لأن هذا معناه أن ينتصر سعد ويأخذ من الدكتور مبلغ العشـــرة آلاف جنيـــه مؤخـــر الصداق، بالإضافة إلى إيصال الأمانة ... وهو الذي لا يمتلك منـــهم مائة جنية .. وحتى لو كان يمتلكهم .. فمن المســـتحيل أن يعطيـــهم لسعد كي يخرج هو من الصفقة رابحا، واسودت الدنيا في عينيه .. لم يعد لديه أي أمل في تحسن الحال .. بدأت تزحـــف علـــى مظـــهره علامات الاكتئاب .. بدا شعر لحيته يتطور بسرعة فوق جلد وجهـــه كنباتات شوكية شيطانية .. لم يعد يميل إلي الخروج مـــن بيتـــه إلا للضرورة .. كان ينزوي وحيدا في إحدى الغرف .. يصرخ في وجه سعدية إذا ما اقتحمت عليه غرفته..

لكن الصدفة السعيدة وحدها هي التي جعلتـــه يلبـــي دعـــوة صديقه مدحت حنفي لتناول الشاي في بيته عندما قابله في فاقوس بعد انقطاع بينهما دام أربع سنوات .. تمنع الدكتور أنور في أول الأمـــر معتذرا بأن الوقت غير مناسب .. لكن صديقه وافقه علي ذلك وطلب منه فقط التعرف علي مكان السكن أولا .. ثم بعد ذلك سينتظر منـــه زيارة علي الغداء هو وزوجته والأولاد .. زيارة عائليـــة .. تكـــون

بداية لتجديد عرى المحبة والصداقة القديمة منذ أيام الجامعة والسفر بالقطار يوميا معا إلي جامعة الزقازيق .. وبينما كان الدكتور أنور يتأبط ذراع صديقه متجها إلى مسكنه ..إذ به يرى الحاج سعد يهرول أمامه، ثم يدخل عبر بوابة إحدى العمارات الضخمة الفخمة، لم يعر الأمر اهتماما؛ فلم يكن تصرف الحاج سعد في البداية يثير ريبة أو شكا .. لكن عندما أشار صديقه إلي البيت المقابل للبيت الذي ابتلع الحاج سعد قائلا: ((هذا هو بيتي يا دكتور أنور..هل تتفضل وتتناول معي الشاي؟))

في تلك اللحظة فقط لم يجد أنور لديه أي اعتراض لتلبية الدعوة .. بل على العكس من ذلك تفتحت في أعماقه رغبة متوجسة للصعود مع مدحت .. فكر أن يستدرجه في الحديث عن هذا الرجل الذي دخل أمامهم إلي البيت المقابل لهم.

لو لم ير الدكتور أنور كل شئ بعينيه، لما صدق كل ما قاله صديقه عن زواج الحاج سعد..وود لحظتها لو تحمله طائرة نفاثة وتلقي به في وجه سعدية وأمها..لقد فاز هو أخيرا .. حصل علي دليل اتهاماته المتكررة لأبيها .. ها هو يستثمر أموالها وأموال أولادها بمنتهى الأمانة – كما كانت تقول له كلما حذرها من تصرفات أبيها – ها هو يستثمرها في الزواج من النساء . ها هي أموالك يا سعدية تبعثر علي ملذات أبيك .. أموال أولادك .. تعبك وثمن اغترابك يضيعها أبوك الأمين الذي يتقي الله – كما تدعين – علي النساء .. الصدفة جعلتني أعرف هذه المرأة .. ربما كان هناك غيرها ولا نعرف عنهن شيئا .. ووو .. لم تصدقه .. ردت عليه بحزن وشك: ((أنت تكذب علي.. أنت توقع بيني وبين أبي!!))

لم ينفعل .. سيطر علي أعصابه تماما؛ حتى لا يخسر كل شئ .. في اليوم التالي أصطحبها إلي بيت صديقه ورأت كل شئ بعينيها وسمعت من زوجة صديقه مدحت أن أباها قد تزوج هذه

المرأة منذ ستة أشهر وأنها حامل في شهرها السادس .. وأنه ينفـــق عليها ببذخ فالناس تقول عنه أنه مقاول غني جدا..

لم ترتح سعدية إلا بعد أن رأت هذه المرأة التي استولت علي أبيها وأموالها .. لكن راحتها استحالت إلي شقاء عصف بكل كيانــــها .. لقد كانت المرأة علي قدر هائل من الجمال .. لم يكن هناك نقــاط تشابه علي الإطلاق بينها وبين أمها لتقارن بينهما .. ابتلعتها دوامــــة من الجنون .. كادت تعصف بعقلها تماما .. لولا أن زوجـــــها أخــذ يهدئ من توترها..

كما صدمت أمها عندما علمت، لكنها طلبت منهما أن يتكتمــا علي هذا الخبر حتى تفتحه هي بطريقتها الخاصة مع سعد .. وتحاول أن ترده عن غيه .. وتستخدم معه أسلوبا طريا حتى يمكنها أن تسترد أموال ابنتها من بين يديه .. ستجعله بطريقتها الخاصة يعتــذر عمــا فعل ويطلق المرأة الجديدة التي سحرت له، ويرد أموال سعدية إليــها .. بالطبع لم يطمئن أنور أو سعدية إلي هذا القدر الكبير مــن الثقــة بالنفس التي تكلمت وفكرت به أم سعدية .. وخاصة أنهما رأيا معـــا جمال الزوجة الباهر .. ولكن علي أي حال لم يكن أمامــــهما غــير الانتظار..

الآن سعادة الدكتور أنور مضاعفة .. فهو يرى لأول مـــــرة زوجه سعدية تشعر باستقلاليتها وشخصيتها المنفصلة بعيدا عن أبيــها الذي ابتلع كل شئ في بطنه الواسع..

أفاق الدكتور أنور من حالة السعادة التي تستغرق كل كيانـــه علي توسلات أم سعدية الباكية: ((يا دكتور أنور أنت الرجل المسئول عنا الآن .. نحن ضعفاء .. وخروجنا من هذه المشـــكلة لابــد وأن يكون علي يديك يا ابني .. لابد أن نلحق أموال سعدية قبل أن تلد لــه المرأة ولدا ذكرا ويكتب باسمه كل الأموال..))

صرخت سعدية من جديد بحرقة وقهر: ((يا رب.. يا رب .. هل يرضيك هذا ؟!!))

قاطعها الدكتور في جدية هادئة، وثبات المسئول عن الأمــور العظام: ((كفي عن النواح والصراخ .. هذه الأشياء لن ترجع حقك .. علينا أن نفكر بعقل وروية .. هل هناك أية عقـــود أو أوراق بينــك وبين عمي الحاج سعد .. توضح حقك في هذه الأموال؟!!))

لم تجبه سعدية علي الفور .. بل نظرت إليه بضيق وسخط ثم قالت ناهرة له: ((أنت تعلم جيدا أنه ليس هناك أية عقـــود أو أوراق بيني وبين أبي .. ومنذ أن كتبت له التوكيل العام منذ أن كنـــت فـــي السعودية ليأخذ أموالي ويستثمرها لم يكن هناك أية عقــود أو أوراق .. لأنني بمجرد إنهائي للعمل في السعودية أقمت معه في نفس البيـت حتى طلقت من فرج زوجي السابق .. لذا لم أستطع أن أطلـــب مـــن أبي أية عقود..))

قاطعها الدكتور أنور موضحا: ((إذن الموضوع يحتاج إلـــي محام أمين .. ويجب أن نتحرك بسرعة وفي سرية تامة .. قبـــل أن يتصرف عمي الحاج تصرفا عنيدا نخسر بمقتضاه كل شئ .. فربمـــا فكر في نقل كل الأموال إلي الزوجة الثانية زيادة في وغيظكم.

صرخت سعدية في وجه الدكتور أنور بلهجة آمرة: ((بـــاكر سنذهب معا إلي المنصورة .. إلى الأستاذ جمال صفي الدين .. يجب أن نستشيره ونأخذ رأيه .. لن أسكت أكثر من ذلك .. لن أسمح لحقي بأن يضيع مني أبدا))

هز الدكتور أنور رأسه موافقا على ما أمرت به .. وبعــد أن توقف عن الكلام للحظات كأنه يفكر .. رفع رأسه مستدركا: ((لكـــن

لماذا نذهب غداً إلي المنصورة ويرانا الجميع، وقد يتسرب الخبر إلي الحاج ؟ .. غدا هو يوم الخميس .. وسوف يأتي الأستاذ جمال صفي الدين وأسرته كعادته كل يوم خميس ليقضي ليل الخميس ونهار الجمعة في فيلا العمدة))

بسط الارتياح فجأة كل أجنحته فوق وجهي سعدية وأمها لسماع ذلك .. ورفعت سعدية يديها إلي السماء داعية بألم وأمل: ((يا رب الهمني السكينة والصبر حتى ألتقي مع الأستاذ جمال .. أنت وحدك تعلم مدي العذاب والتعب الذي أصابني من أجل الحصول علي أموالي .. يارب ..))

ولأن ليل الانتظار -للذي قد يأتي- أطول من الليالي الأخرى .. لذا كانت سعدية -علي وجه التحديد- تشعر أن صباح اليوم التالي .. يوم الخميس الذي سيأتي فيه الأستاذ جمال .. هو صبح بعيد عنها جداً .. ومما زاد قلقها وتوترها هو هذا التوجس الذي تسرب إلي ما تحت جلدها، وجعلها تتقلب في فراشها طوال الليل..هلي سيأتي جمال إلي الكفر كعادته التي لم يخلفها منذ أن تزوج نسمة ؟ .. أم أن الحظ السيئ سيلعب دوره ويعطل مجيئه ؟!! .. ولذلك أيقظت زوجها الدكتور أنور من نومه أكثر من مرة لتقترح عليه أن يسافرا معاً إلي المنصورة، ويقابلا الأستاذ في مكتبه .. لكن أنور يرد عليها بضجر علي إثر انتزاعه من نومه، الذي صار ممتعاً له خلافاً للأيام الخوالي: ((سلمي أمرك لله ونامي .. سننتظر الأستاذ هنا .. في الكفر .. إن مجيئه إلي الكفر عادة لم يغيرها أبداً منذ زواجه حتى الآن .. أنت تعرفين ذلك .. قد نذهب إليه المنصورة ويكون هو في محكمة أخري .. خارج المنصورة .. سيضيع مجهودنا هباء))

لم تكف سعدية عن مواصلة النقاش مع زوجها .. ليس اقتناعاً بوجهة نظره .. لكن لمحاورة هواجسها التي باتت تسكن في صدرها: ((ماذا لو فشل الأستاذ في الحصول على حقي من أبي .. ماذا لو عاندني أبي، وكاد لي أنا وأمي وكتب كل ممتلكاته للزوجة الثانية ؟!! .. كيف سنتصرف معه ؟!! .. هل سنترك لها مالنا هكذا ونستسلم ونضيع؟!!)) .. ويزداد لهيب الغضب والخوف في أعماقها تأججاً واشتعالاً وتسرى برودة في كل أعضائها .. حتى لتشعر بأنها قاربت من الموت وطلوع الروح .. وفي اللحظة نفسها التي ترحب فيها بالموت وتتمناه؛ حتى ينقذها من هذه المصائب التي انهالت عليها مرة واحدة -ودون سابق إنذار- تتراجع عن هذه الأمنية .. تؤجل الموت إلي ما بعد الحصول علي حقها .. تسلمه لأولادها .. ثم تموت

((الموت لا يخيف .. الظلم هو المخيف .. أن يذهب شقائي وتعبـــي إلي زوجة أبي الجديدة هذا هو الرعب والخوف بعينه .. هذا أقســى علي نفسي من الموت))

لذلك تسارع إلى إيقاظ زوجها من جديد لتسأله بقلق: ((أتعتقد أن الأستاذ جمال سينجح في استرداد أموالي من أبي؟!!))

يصرخ زوجها فيها منزعجاً: ((أما آن لك أن تخمد نارك هذه التي ستحرق أعصابك وتقتلك قبل أن تأخذي حقك من أبيـــك ؟!! .. غداً في المساء سيأتي جمال .. سيخبرك بكل شئ .. أمَّا الآن فيجـب عليَّ أن آخذ غطائي وأذهب إلى الحجرة الثانية لأنام فيها كعــادتي.. أريد أن أرتاح منك ..أُف.. ما الذي جعلني أغير عادتي الليلة؟!!))

في الحال نهض ممسكاً بغطائه متوجهاً إلي الحجرة الثانية .. وهو يتأفف ويغمغم: ((المرأة ستجن .. بالتأكيد ستجن قبل أن يـــأتي الصباح .. ربنا يستر ويحضر جمال في موعده ولا يخلفه هذه المـرة بالذات .. وإلا ستجن حتماً مائة في المائة .. ستجن !!))

بالفعل كان حضور جمال صفي الدين عاده أسبوعية يعرفــها كل أهل الكفر .. منذ أن تزوج نسمة بنت عمدة الكفر الحاج أيوب .. كان يعتبر هذه العادة الأسبوعية ديناً في رقبته وواجباً عليه .. ليـس تجاه عمه الحاج أيوب أو الحاجة صفية والدي زوجته وحبيبته نسـمة فقط .. بل كان يعتبره واجباً تجاه أهل الكفر جميعهم .. فمنذ أن عـاد جمال إلي الكفر بعد الهجر المفاجئ له؛ عندما فهم خطــأ أن العمـدة وزوجه يرفضون زواجه من ابنتهما نسمة .. التي تعلقت بها روحــه تعلق الرئتين بالهواء ..منذ أن جاء إلى الكفر مدرساً فـــي مدرســة الكفر الابتدائية .. وبعد أن أطلق سعد الأقرع شائعته المغرضة التــي زعم فيها أن العمدة طرد جمالاً وأمه بالقوة والتهديد من الكفر تحــت جنح الظلام .. هادفاً بذلك إلى تأليب أهل الكفر ضد العمدة مســتغلاً حبهم العميق لجمال ..

ولكن ما أن كشف سعد نفسه هذه المكيدة لجمال؛ حتى قرر جمال أن يعود إلي الكفر من جديد .. عاد وصحح للجميع كل شئ .. وانكشف لهم الدور الخبيث الذي لعبه سعد .. مما اضطره إلى الابتعاد عن الناس في الكفر من جديد .. كذلك اضطر إلي تقليص أماله وأحلامه الطفرية المفاجئة .. التي انفجرت شظاياها في كل تفكيره في يقظته ومنامه .. بل أوشك أن يعيش أحلامه كحقائق .. فراح يسلك سلوك عمدة الكفر المقبل .. بعد أن اعتقد تماماً أنه دمر الحاج أيوب عمدة الكفر نهائياً .. وأن أمراضه الجسدية والنفسية هي مجرد حلاوة الروح والأنفاس الأخيرة .. والمسألة بالنسبة له مسألة وقت لا أكثر..

لكن ظهور جمال في الكفر من جديد واقترابه الجارف من العمدة من جديد .. بل وإعلانه الزواج من نسمة بدد أحلام سعد جميعها .. بل كانت شهادة جمال في المسجد في يوم الجمعة أمام كل أهل الكفر بأن الذي أشاع بأن العمدة طرده جبراً هو وأمه هو محض كذب وافتراء .. كانت هذه الشهادة في الوقت نفسه هي شهادة وفاة لكل آمال سعد في أن يصبح من كبار القوم معتمداً علي صرح ماله الذي أخذ يعلو ويعلو في سماء كفر مفتاح بل وامتد إلي مدينة فلقوس نفسها بعد أن أنشأ بها مؤسسة المقاولات ومستودع بيع مواد البناء .. وعلي أثرها صارت علاقته بجمال علاقة فاترة .. يشوبها الكثير من الحنق والخجل من جانب الحاج سعد .. كلما تذكر أنه أفضى بسذاجته بأخطر أسرار حياته .. تلك الخطابات التي كان يرسل بها إلي كل عريس يتقدم لخطبة نسمة ابنة العمدة .. يتهمها فيها– كذباً– أنها سيئة الخلق .. وأنها تمارس الجنس مع أحد زملائها بالجامعة .. لكن جمالاً تناسي هذا الأمر تقريباً، وعامل سعد معاملة المريض نفسياً .. أهمله تماماً .. في الوقت نفسه الذي التف كل أهل الكفر وخاصة الشباب منهم – وغالبيتهم من تلاميذ جمال – حول جمال وبالتالي دوار العمدة الحاج أيوب من جديد .. صارت (فيلا) الحاج أيوب في مساء الخميس ونهار الجمعة قبلة أصحاب الحاجات والمشاكل سعياً لقضائها وحلها علي يدي الأستاذ جمال وبحضور ومباركة العمدة .. ولذا كان شيئاً طبيعياً وعادياً أن يمر المارة بجوار (فيلا) العمدة في

مساء الخميس فتبهرهم الأضواء التي تضيء (الفيلا) داخلها وخارجها .. ويسمع الأصوات العالية أحياناً والمنخفضة أحياناً أخري .. بيـــن شاك أو مدافع عن نفسه .. ثم ضحكات الرضا تملأ صدور الجميع .. وتحل المشاكل وتقضي المصالح .. دون ملل أو ضيق من جمـــال .. دون تبرم من العمدة .. بل كان العمدة في قمة سعادته فلقد عادت من جديد إليه وإلي (الفيلا) هيبة العمدة .. وعاد إليه – كما كـــــان قبـــل ظهور سعد كغني جديد ومحدث نعمة يطمح إلي الســـلطة ومنصـــب العمدة– زمام الأمر في الكفر عاد إلي بيته .. حتى ولو كان النـــاس يأتون إلي جمال .. فهذا الأمر لا يحزنه ولا يزعجه؛ فجمال هو زوج ابنته .. بل هو بمثابة ابنه البار الوفي .. الوحيدة التي كانت تضيـــق بهذا هي الحاجة صفية .. فلقد صار جمال بالنسبة لها أحب إليها مـــن الجميع .. لقد صار بالنسبة لها كالابن الحقيقي الذي رقد في رحمـــها تسعة أشهر كاملة .. وفي كل يوم كانت محبته تنمـــو وتـــترعرع .. فهي لا تذكر أبداً أنها طلبت من زوج ابنتها جمال شيئاً وقال لها لا .. فعندما طلبت منه أن يزورهم كل جمعة .. استجاب لها ولم يخلـــف وعده لها .. إذا تكلم معها تكلم بأدب جم وحـــب ورقـــة .. وعندمـــا طلبت منه في تردد السماح لنسمة بالبقاء معها في (الفيـــلا) عندمـــا كانت في شهرها الأخير من الحمل؛ حتى تضع مولودهما الأول .. لم يتردد هو .. أجابها إلي طلبها في الحال .. عندما اقترحت أن يكـــون اسم الطفل عمر .. وافقها في الحال..ذلك فضلاً عن المعاملة الطيبـــة الرقيقة الناعمة التي يعامل بها ابنتها نسمة..وكيف أنه لا يطيـــق أن يلمسها أي مكروه..يعاملها بحنان أكثر من حنان أمها وأبيها..ينـــهض أكثر من مرة طوال الليل لكي يحميـــها مـــن الـــبرد ويشـــد عليـــها الغطاء..يدللها كما لو كانت طفلته لا زوجته..كانت الحاجـــة صفيـــة تسمع من ابنتها كل هذا فتشعر بالندم البالغ لأنها فكرت في يوم مـــن الأيام أن تقف في طريق زواج جمال ونسمة..ندمت لأنها توقعـــت أن هناء ابنتها وسعادتها ستكون مؤكدة مع خطيبها الأول دكتـــور كليـــة الزراعة..أيقنت بعد ذلك أن نظرة زوجها العمدة كانت بالفعل صائبـــة عندما تعاطف مع جمال وتمنى أن يكون زوجاً لابنته وابناً له.

ولذلك كانت الحاجة صفية تتبرم بينها وبين نفسها من هؤلاء الناس الذين يأخذون منها جمالا كلما أتى في يومي الخميس والجمعـــة

.. لدرجة أنها فكرت مرة ألا يأتي جمال ونسـمة .. وتذهـب هـي والعمدة إليهما في المنصورة .. لكن الحاج أيوب زجرهـا غاضبـا: ((وماذا أقول لأهل الكفر ياحاجة؟!! .. هل أقول لهم أن جمالا هـوب منهم .. وكيف أفاتح جمالا في هذا الأمر، وهو الذي يحرص علـي هذه اللقاءات بينه وبين أهل الكفر .. يجب أن تحمدي ربك لأن هيبـة العمدية عادت إلينا مرة ثانية علي يد ابني جمال .. هل نسيت الأيـام التي حاربني فيها سعد الأقرع ومن هم علي شاكلته؟!! .. هل نسـيت كيف كنا نعيش في حزن وبؤس؟!! .. هل نسيت كيف كانت (الفيـلا) مظلمة بشكل شبه دائم؟!! .. هل نسيت هذه الأمراض التـي احتلـت على جسدي ونفسي؟!! .. أنا رجل تربى أبا عن جـد علـى خدمـة الناس والجري والتعب من أجل قضاء حاجاتهم لله وفي الله .. تـأتين أنت اليوم وتفكرين مثل هذا التفكير الأناني .. كي تحرمي أهل الكفر من جمال .. وتجلسي معه أطول فترة ممكنة؟!!))

من بعد محاضرة التأنيب والتوبيخ هذه لم تعد الحاجة تفكـر في هذا الموضوع مرة أخري، بل كانت تقبله على مضض .. ولـم تكن تملك إلا أن تدعو الله تعالي أن تكون مشاكل الناس قليلة..

ولكن بعد أن هل عليهم حفيدهم عمر ملأ عليهم جميعا الدنيـا .. خاصة الحاجة صفية والحاج أيوب .. واعتبره أهل الكفـر ابنـا للكفر كله ((فابن الأستاذ جمال هو ابننا جميعا)) . هكذا قالوها بفـرح وإخلاص .. ولأن جمال يحب الناس ويتعامل معهم بتواضع .. لـذا انتقلت العدوى إلي زوجته نسمة .. فلم تعد هي كما كانت نسمة ابنـة العمدة التي تتحاشى الكلام مع الناس .. المبتعدة عنهم اجتماعيا .. بل صارت مندمجة مع أهل الكفر .. كانت تفرح بذهابها مع جمال لأداء الواجبات الاجتماعية .. في المناسبات المختلفة .. سواء في الأفـراح أو في المآتم .. وصارت بالتالي هي الأخرى محبوبة مـن الكبـير والصغير في الكفر .. وحتى ابنهم عمر كانت أيدي الكبار والصغـار تتلقفه في حب واعتزاز .. كل يطمح إلي احتضانه وتقبيله وخاصـة أنه صورة طبق الأصل من أبيه العيون الزرقاء والشـعر الأصفـر والبشرة البيضاء كالذبدة..

لذلك لم يتأخر جمال عن الاستجابة الفورية لدعوة الدكتـــور أنور زوج سعدية بنت سعد، عندما قابلـــه عصـــر اليـــوم، وأوقــف سيارته علي الطريق الزراعي الضيق الداخل إلي الكفر .. مخافــة أن يراه أحد من الكفر .. وشدد عليه راجيا أن يبقـــى الأمـــر ســـرا .. موضحا له أن سعدية وأمها في حالة انهيار تام منذ ليلة أمس، وأنهما يستغيثان به.

في الحال..وبمجرد أن أوقف سيارته أمام (فيلا) العمدة وأنزل منها أسرته وأمه الحاجة الكبيرة أم جمال التي أتت معهم على غـــير عادتها..سلم على من في (الفيلا)..ثم تسلل خارجـــا دون أن يلحظـــه أحد، وقبل أن ينتبه لحضوره أهل الكفر فيحيطون به ويعطلونه عـــن الذهاب إلي بيت الدكتور أنور..وأشار إلي زوجته نســـمة أن تجعـــل الأمر سرا كما سمعت بنفسها من رجاء الدكتور أنور.

وما أن وقعت عيون سعدية وأمها على طلعة الأستاذ جمـــال حتى أجهشتا معا ببكاء مريع ومرير ومستغيث .. وكأنهما لا تقويـــان على التوقف عن النواح .. صرخ فيهما الدكتور أنور شـــبه معاتبـــا: ((بهذه الطريقة في البكاء .. لن يتمكن الأستاذ من فـــهم الموضـــوع بكامله .. ستضيعان وقته دون فائدة .. تكلمـــي أولا يـــا خـــالتي أم سعدية)) .

تكلمت أم سعدية .. من بين أنهار دموعها التي ما تلبـــث أن تكفكفها بين لحظة وأخري، وكررت أكثر من مرة كيف أن ســـعدا المفتري قد أكلها لحما ورماها عظما .. وأنه تزوج واحدة أخرى مـــن فاقوس .. ضحكت عليه وأخذت منه أموال سعدية .. ثـــم قاطعتـــها سعدية بحرقة بعد أن تمالكت أنفاسها في حضور أستاذها ووضحت له أنها باختصار تريد جميع أموالها .. وذكرته بأن حضرته يعلم قبـــل غيره أن أباها لم يكن يملك قبل سفرها إلي السعودية مليما واحـــدا .. وان الأستاذ بنفسه كان يعطف عليهم وعليه..

قاطعها جمال موضحا بهدوء حزين: ((شهادتي أنا لن تنفـــع في مثل هذه الأحوال .. فالقاضي لا يحق له أن يقضي بعلمـــه كمـــا

يقول القانون .. لكن هذه قضية مدنية وأول ما يلزم فيها هو الإثباتات المادية .. الأوراق .. المستندات .. هل لديك أية عقود أو مستندات تثبت حقك عند أبيك يا سعدية؟))

أنفجر الوجوم فجأة ونشر ذراته علي وجوه الجميع .. ما عدا الأستاذ جمال الذي ظل محدقا في وجه سعدية متلهفا للرد .. لكن لا إجابة .. حتي تطوع الدكتور أنور موضحا بعد أن تنحنح مرتين: ((للأسف يا أستاذ .. سعدية لم تستجب لنصائحي .. لم تأخذ أي مستند على عمي الحاج سعد!!))

انعقد جبين جمال، وهز رأسه عدة مرات في صمت؛ فقد لمح في أفق هذه القضية ملامح الصعوبة والتعقيد .. فقضية أحد طرفي الخصومة فيها سعد .. والطرف الأخر ليس لديه أية مستندات .. لا شك أنها قضية خاسرة .. لكنه مع ذلك لم ييأس بل عاود السؤال بنفس الهدوء والتأني: ((ألا تذكرين يا سعدية أية خطابات بينك وبين أبيك بخصوص استثمار مالك؟.. وخاصة عندما كنت في السعودية؟ .. ألا تذكرين أنك عملت له توكيلا .. أو كعوب دفتر الشيكات الخاص بك التي كان يصرفها والدك من البنوك هنا؟ .. حاولي أن تتذكري أي شئ من هذا القبيل.))

فاض الصمت المشوب بالترقب في كل الحجرة التي يجلس فيها الجميع .. أغرقهم كلهم للحظات طويلة .. توجهت العيون كلها إلي سعدية محملقة بتوتر وقلق .. متوسلة لها أن تتذكر .. تتذكر أي شئ .. وأخيرا نطقت سعدية مرتبكة: ((أذكر أن أبي أرسل لي خطابا عندما كنت في السعودية طلب مني أن يستثمر الفلوس التي أرسلتها له ليحفظها لي .. ولقد أجبته عليه بالموافقة .. كذلك أذكر أنه في أول عطلة قضيتها في الكفر اصطحبني إلي الشهر العقاري في فاقوس ووقعت له أمام الموظف المختص علي توكيل عام.. كما أنني غير متأكدة إن كنت ما زلت محتفظة بكعوب الشيكات أم لا.))

هتف جمال وقد انتعشت روحه بعض الشيء: ((هذا جيـــد.. هل تحتفظين بهذه الأوراق؟..هل يمكن لي أن اطلع عليها الآن؟))

مرة أخري انهارت سعدية وغرقت في البكاء مـــن جديـد، وقالت من تحت برقع مدامعها: ((كان أبي هو الذي يحتفظ لي بكـــل هذه الأوراق .. أي أوراق هامة تخصني كان يحفظها لي أبي .. لكن لا أعرف أين يحفظها))

قاطعها الدكتور أنور، ووجه سؤاله المتوتر المستجدي إلي أم سعدية: ((ألا تعرفين أين يخبئ عمي الحاج سعد مثل هـــذه الأوراق ياخالتي؟))

أجابت أم سعدية بثقة وغل: ((نعم .. كان يضع كـل الأوراق المهمة في علبة من الصفيح لـــها غطـــاء محكـــم حتـــى لا تـــأكل الصراصير والفئران الأوراق المهمة .. وكان يضع العلبة دائما فـوق الدولاب .. بعيدا عن أيدي البنات .. لحظة واحدة .. سأذهب علـــى وجه السرعة إلي البيت لإحضار العلبة .. أنا متأكدة أننا سنجد فيـــها كل الأوراق اللازمة.))

وما أن هرولت أم سعدية إلى بيتها، حتى ران علي الجميـــع سكون تام، كان سكونا مختلطا بألوان من الأمل والحذر والقلق فـــي الوقت نفسه.

لم يفكر الأستاذ جمال صفي الدين أبدا في الانتقام من سعد أبو رزق لكل ما فعله من خلف ظهره..سواء تلك الشائعة الحقيرة التي زعم فيها أن العمدة طرده، وهدده هو وأمه بالقتل؛ لأنه فكر في خطبة نسمة .. أو في الدناءة والحقارة المجافية للضمير والإنسانية من خلال تلك الخطابات المزيفة التي يطعن بها شرف نسمة .. لم يخطر ببال جمال مطلقا أي شعور أو إحساس بالرغبة في الانتقام منه .. حتى عندما ساقت الظروف إليه هذه السقطة الشنيعة لسعد بزواجه من امرأة أخرى وتحول زوجته وابنته سعدية إلى ألد أعدائه .. لم يفكر أيضا أن يستغل هذه السقطة للكيد لسعد والانتقام منه وتعريته وفضحه أو تجريده من كرامته أمام الآخرين..فهو وإن كان يتذكر كل ما فعله سعد من أفعال حمقاء ومشينة .. إلا أنه أيضا يذكر تماما ولا ينسي كل مواقف سعد معه ومع أمه وخاصة في فترة مرضه .. أصعب فترات حياته التي مر بها عندما صدم أكبر صدمة في حياته كلها .. عندما أخبرته أمه أن نسمة قد خطبت لرجل غيره .. أما أعمال سعد أبو رزق السيئة فسوف يحاسبه عليها ربه .. لذلك فهو لن يستغل هذا الخلاف الذي قدمته الظروف له لكي ينتقم من سعد .. لكنه عقد النية منذ اللحظة الأولى بينه وبين نفسه على أن هذا النزاع سيحله حلا وديا وعائليا .. بعيدا عن المحاكم .. فلا يمكن أن يسمح لنفسه مهما كان محاميا ذكيا وماهرا أن يكون نصيرا لسعدية على أبيها في قاعة المحكمة .. ففي النهاية يعتبر سعدية في مكانة تلميذته وابنته .. وكذلك سعد في مكانة صديقه وأخيه بالرغم مما بدر منه في لحظات حقد على الحاج أيوب .. لكنه في الوقت نفسه هو يعرف سعدا جيدا .. ويعرف نفسه الأمارة بالسوء دائما أكثر من أي إنسان آخر .. فسعد ليس بالرجل اللين الهين الذي يمكن أن تخضعه وتسيطر عليه الكلمة الحلوة الطيبة .. فهو من هذا الصنف الذي يخاف من الناس ولا يخشى الله .. وهو عنيد جدا .. ولو شعر بقدرته

فمن الصعب أن يعفو .. لذا كان على جمال أن يمسك في يـده أيـة مستندات تثبت حق سعدية .. فقط لتهديده بها إلي أن يصل معه إلـي حل وسط يرضي سعدية ويرضيه هو أيضاً .. أما موضوع زواجـه من امرأة أخري فلا شأن له به .. هو رجل حر وله أن يفعل ما يشاء .. فقط هو يريد أن يقف في مواجهة سعد في مركز القوة ليفاوضـه حول حقوق سعدية المالية .. والأمل كل الأمل فـي الأوراق التـي ستحضرها أم سعدية الآن من بيتها .. في ضوء هذه الأوراق سـيحدد موقفه من القضية .. بعدها يستطيع أن يقترح على سعدية الإجـراء الأفضل والأمثل الذي يجب أن يتخذ تجاه أبيها.

وانطلق تيار من التوتر والقلق يلمس الجميع فـي أعماقـهم السحيقة، عندما ترامي إلي أسماعهم همهمات وغمغمات قادمة مـن الباب الخارجي، أيقنوا على إثرها أن أم سعدية قد أنـهت مهمتـها، وأتت تحمل الصفيحة الحافظة للأوراق المهمة .. اشرأبت أعناقهم في لهفة .. لكن خاب أملهم فجأة عندما سبقها نشيجها .. ثم أخبرتهم بـأن الملعون زوجها قد أخفى الصفيحة في مكان آخـر .. ((ويبـدو أنـه يخبئها عند زوجة فاقوس .. إنه رجل خائن وثعلب بطبعه .. فكيـف يكون تصرف الخائن غير هذا التصرف)) هكذا قالت بعد أن انفجرت باكية أمام الجميع..ثم عقبت عليها سعدية بصوت أكثر فزعاً من أمها: ((المصيبة الكبرى تكون قد وقعت لو أنه تعجل وكتب لها كل الأموال كمهر لسيدة الحسن والجمال .. يا رب ضاع حقي .. هل يرضيـك ياأستاذ جمال .. هل يرضيك هذا الظلم؟!!))

ثم تحول كل كيانها إلي سحابة عاصفة ممطرة تكاد تطغـي علي كل الموجودين وتمتص كل أحاسيس الأمن والرجاء بداخلـهم .. وتبرم الدكتور أنور .. قدر أن زوجته بهذه العصبية في هذا الوقـت الخطير والحساس لن يجني من ورائها إلا سعدية المرأة المطلقة التي تزوجها طمعاً في مالها الذي لا تملك خلافه كعناصر جذب إلي امرأة في مثل قبح منظرها .. فتغلغل الغيظ في قلبه وصدره وأخرج زفـيراً

من جهنم التي يُكْوَى بها وحده دون الآخرين .. تذكر اعتراض أمـــه على زواجه منها .. تذكر مثل القرد والمال .. فجحظت عيناه ممتلئـة بدموع خيبته وخسارته، وصرخ كمدفع هادر: ((كفاك ولولة .. كفـاك بكاء .. أنت زوجة غير مطيعة لزوجك .. كم مـــن مـــرة نصحتـك وحذرتك من هذه الساعة التي كانت متوقعة .. لكنك كنت تســـخرين مني .. كنت تشككين في كلام الصدق والإخلاص الذي أرشدك به .. وها هي النتيجة .. اشربي .. اشربي حتى ترتوي من إخلاص أبيـك وأمانته!!))

تدخل جمال بهدوء وبامتعاض وأسي وهو مأخوذ بكل هـــذه الانفعالات الصاخبة التي تجأر بها حناجرهم، وهمس كأنـــه يحـدث نفسه بعد أن أشار للجميع بكفه طالباً صمتهم: ((يا جماعـــة .. ليـس الوقت وقت صراخ أو انفعال .. وليس معني أنكم لم تعـــثروا علـــي الورق المطلوب .. أننا فقدنا كل شئ .. ما زال الوقت مبكراً علــــي اليأس والبكاء ولطم الخدود .. أرجو أن تتخلصوا حـــالاً مـــن هـذه الانفعالات وهذا التوتر حتى نفكر بعقول صافية)).

ثم صمت للحظات .. وصمت معه الجميع .. وبدا على كـــل واحد منهم أنه يحاول استرداد عافيته النفسية ويتخلص مـــن دوامـــة الخوف والقهر التي ابتلعتهم منذ معرفتـــهم باختفـــاء علبـــه الأوراق المهمة .. شرعت سعدية وأمها بجسارة وتجلد بمسح دموعها بمناديل نسائية صغيرة مزينة بالورد الأحمر .. بينما أخذ الدكتور أنور يسترد هدوءه وخلع نظارته السميكة وراح يمسح زجاجها بقطعـــــة قمـــاش ناعمة يحتفظ بها دائما لهذا الغرض وقالوا معا بالصدفة وفي نفــــس واحد كأنهم علي اتفاق: ((تفضل يا أستاذ..))

قبل أن يتكلم جمال شمله سكون عظيم، ثم دعك كفاً بـــأخرى كأنه يشعل كل أضواء فكره، وسأل سعدية: ((ألم تخبريني عن توكيل عام كتبته ووقعتي عليه في الشهر العقاري بفاقوس؟))

أجابت سعدية في الحال: ((نعم يا أستاذ .. عملت لأبي توكيلا عاما في الشهر العقاري بفاقوس))

سألها مستفسرا: ((هل تحتفظين بصورة من هذا التوكيل؟))
ردت فيما يشبه الأسف والحزن : ((للأسف .. فلم يكن يخطر أبدا في بالي أن أبي يمكن أن يفعل مثل هذا .. ولذلك لم أكن مضطرة للاحتفاظ بأية صورة أو أية أوراق!!))

من جديد زفر الدكتور أنور مستهجنا كلامها، ورشقها بنظرات مفعمة بالكراهية والاشمئزاز، وأراد أن يعلق من جديد على خيبتها وعلى عدم طاعتها له .. لكن جمالا سبقه متعمدا وسأل سعدية بتركيز: ((هل تتزكرين التاريخ الذي وقعت فيه هذا التوكيل لأبيك في الشهر العقاري؟))

لم تجب في الحال .. سكتت بعض الوقت مما أعطي الدكتور أنور الفرصة لكي يستفسر من الأستاذ عن أهمية أو فائدة هذا .. فأوضح له الأستاذ: ((لو عرفنا التاريخ على وجه التحديد لأمكننا استخراج صورة منه من الشهر العقاري .. كما يمكننا أيضا طلب إلغائه .. وبذلك يصير باطلا قانونا .. ولا يحق للحاج سعد التصوف بمقتضاه من تاريخ الإلغاء على الأقل))

عند ذلك أشرقت ملامح ابتسامة ارتياح فوق شفتي الدكتور أنور الغليظتين، فبانت أسنانه الصغيرة المرصوصة كأسنان الفأر، وشرع يحمس سعدية ويشجعها .. كأنه يقوى ظهرها في لحظات المخاض، ويساعدها علي الولادة قائلا: ((حاولي التذكر يا سعدية .. أرجوك ركزي تفكيرك جيدا..هذه آخر فرصة لنا و.....))

ويبدو أن سعدية لم تكن تنتبه إلي تحفيزه لها بالتفكير .. لأنها كانت منشغلة تماما باسترجاع تاريخ أول عطلة عــادت فيــها مــن السعودية .. وتذكرت أنها بعد عام كامل أثنى عشر شهرا من تــاريخ أول ذهاب لها إلي السعودية .. وفي التــو ســألت الأســتاذ جمــال مستفسرة منه بخجل التلميذة : ((أتذكر يا أستاذ السنة التــي ســافرت فيها إلي السعودية أول مرة؟ تقريبا في نفس الشهر من العام التالي))

أجاب الأستاذ مطمئنا كأنه وصل إلي الإجابة: ((علي أي حال هذا أمره سهل .. يمكن الرجوع إلي جواز سفرك لتحديد تاريخ السفر بالضبط .. هل تحتفظين به؟))

أومأت سعدية بالإجابة : ((هو وبطاقتي الشخصية ..))

وتدخل الدكتور أنور في النقاش دون أن يندبه أحــد مقدمــا خدماته مؤكدا بإخلاص: ((يوم السبت سأذهب إلي الشهر العقـاري .. يعمل به أحد أصدقائي .. سأتفرغ لاستخراج صورة مــن التوكيــل المطلوب .. لكن هل هذا يكفي لرفع القضية في الحال علــي عمــي الحاج سعد ؟!!))

أجاب الأستاذ وهو يهيئ نفسه للنهوض: ((هذا ما سنحدده بعد الحصول علي الصورة المعتمدة من التوكيل .. ولكن إلي أن يتم هـذا أرجو أن يظل هذا الأمر في طي الكتمان .. لا يجب أن يتسرب إلــي الحاج سعد حتى يبقي بيدنا زمام المبادرة..أرجوكم))

اتسعت ابتسامة الدكتور أنور، حتى أوشــكت أســنان الفــأر الحبيسة خلف شفتيه أن تثب في عيني الأستاذ مؤكدا له أنــه ســبقه وطلب نفس الطلب من سعدية وأمها .. حتى لا يتحرك الحاج ســعد حركة عنيدة، ويكتب الأموال كلها باسم الزوجة الثانية .. ثم أضــاف مؤكدا له أنه في يوم السبت سينجز المطلوب بعون الله .. فرد عليــه

الأستاذ مبادلا الابتسامة بابتسامة مثلها قائلا وهو يخرج من حافظتـه (كارته) ويمده إلي الدكتور: ((هذا هو رقم تليفون مكتبي وبيتي فـي المنصورة .. في حالة الحصـول علـي الصـورة أو ظـهور أي مستجدات أخري اتصل بي فورا..وفي ضوئها سيكون تصرفنـا إن شاء الله.)).

ثم استدار إلي سعدية وأمها مصافحا لهما بابتسـامته العذبـة المطمئنة قائلا لهما معا: ((لا داعي لكل هذه الانفعالات.. ثقا في الله، .. هو وحده سيساعدنا علي حل جميع المشاكل .. لا داعي للبكـاء .. اتفقنا ؟))

خرج جمال بقامته الواثقة المستقيمة .. لكن بعد أن ترك خلفه الكثير من الهدوء والاطمئنان في قلوب الجميع .. خاصـة تلميذتـه سعدية التي تتفاءل بوجوده دائما .. فهي لم تزل تحفظ في ذاكرتـها دوره الأبوي الحاني في تربيتها وتعليمها .. وكذلك دوره في التحاقها بمدرسة التمريض في القصر العيني بالقاهرة .. وكيف ساعدها ذلـك على حصولها على العقد للعمل في السعودية .. وكيف كان ذهابـها هو سبب نعمتهم المادية التي حولها أبوها – بزواجه من أخري – إلي نقمة ولعنة وشقاء .. لكن مجرد ظهور الأستاذ جمال فـي المشـكلة أوحى لها بانتهائها على خير لصالحها.

غير أنها صفعت نفسها في الحال بسؤال مشـاكس وعنيـد: ((هل يفلح جمال صفي الدين مع عناد أبي هذه المرة بالذات .. بعـد أن احتوته امرأة جميله؟)) .. طفح الشك من جديد متسربا من ينبـوع مخاوفها على أموالها؛ فاستدارت إلي زوجها الدكتور أنور الذي رجع لتوه بعد أن ودع الأستاذ جمال عند الباب وصرخت فيه مسـتغيثة : ((لا ترجع يوم السبت من فاقوس إلا ومعك صورة التوكيل .. هـو الأمل الوحيد)).

لم يجبها زوجها .. فقط قذفها بنظرات حادة نافذة إلي أعماقها .. كانت مزيجا من السخرية والاستخفاف والغضب والضيق منـها .. فهمت هي الرسالة في الحال .. إنه يتشفى فيها لأنها لم تستمع إلـي نصائحه .. لكنها مع ذلك أشاحت بوجهها واقتربت من أمها تواسـيها في مصيبتها الخاصة جدا .. ففراشها سيصير باردا .. ستـنام فيـه بمفردها بعد أن شاركها فيه أبوها على مدي سـنوات طويلـة..لقـد عاشت هي هذا الإحساس المر، عندما صمم أبوها على تطليقها مـن زوجها الأول فرج.

عندما اندفع جمال صفي الدين خارجا من بيت سعدية بنت سعد كان صدره يعتمل بمشاعر الغم والأسى .. بالرغم من أنه حاول ستر هذه الأحاسيس عن عيون الموجودين؛ حتى لا يصابوا باليأس والقنوط .. فربما تسرعوا في فهم تلك المشاعر ويفسرونها طبقا لحالتهم النفسية المتدهورة على أن الأستاذ سيفشل حتما في مساعدتهم للحصول على حقهم المالي من سعد .. لكنه بمجرد خروجه من عندهم .. فتح كل حويصلات رئتيه التي تحجرت ضيقا مما حدث .. كان في حاجه شهوانية طليقة لاغتراف أكبر كمية من هواء الكفر النقي؛ حتى يرطب جفاف صدره ويلين مزاجه المعطوب .. عندما اقترب من المسجد قرر أن يدلف إليه ليؤدي صلاة المغرب الذي حان وقته منذ نصف ساعة مضت .. فهو بذلك يصطاد عصفورين بحجر واحد .. سيؤدي الفريضة في موعدها .. ومن جهة أخري ستكون لديه إجابة صادقة عندما يسأله بعض الفضوليين الذين ينتظرونه الأن حتما في (فيلا) العمدة للكلام إليه، أو مساعدتهم في حل مشاكلهم – عن المكان الذي كان فيه .. سيجيبهم صادقا أنه كان في المسجد .. ليبقي موضوع بيت سعد أبو رزق سرا..ولا يذاع عن طريقه هو..

شعر بسكينة عظيمة وهدوء نفسي بمجرد إتمامه الصلاة .. استردت أنفاسه هدوءها وسلاستها .. صافح بود وحميمية كل من التقي بهم من أهل الكفر في المسجد بطريقتهم الخاصة معه من خلال التعانق والأحضان الدافئة المخلصة والقبلات الحارة .. ثم قصد (الفيلا) رأسا .. كان الجو يتوشح بالدفء على غير العادة في مثل هذا الوقت من العام، فالصيف لم يأت بعد .. بالكاد الدنيا في منتصف شهر أبريل .. وسكن الهواء بعض الوقت مما لفت انتباه جمال إلي هذا الاستثناء الطقسي .. لكنه في التو رفع عينيه إلي السماء ليتحقق

من أن السماء تتكدس بالسحب الكثيفة كما خمن .. ابتسم لنفسه عندما تذكر ما كان يشرحه لتلاميذ الصف السادس الابتدائي عـن تيـارات الحمل .. وأن الليالي الغائمة تكون في العـادة ليـال أكـثر دفء .. ويوضح لهم أن السحب الكثيفة تكون بمثابة الحاجز بين الهواء البارد أعلاها وبين الهواء الدافئ الملامس للأرض .. لكنه تذكـر ذكـري عزيزة جدا على نفسه .. مرتبطة بهذا الدفء .. تذكر أن هذا الـدفء نفسه يجعل الروائح العطرة تتبخر من زهور الليمون .. كانت دائمـا تعبق المكان كله .. هناك حول (فيلا) العمدة .. محراب حبه، الـذي ظل يتعبد فيه في صمت ووحدة لأكثر من ثمـان سـنوات .. حبـه الصامت لنسمة .. انداح الخدر اللذيذ في مختلف أعضائه .. ارتفـع نبض الذكريات الحلوة في حناياه .. أحس بعدها بنشوة هائلة وطاقـة مفاجئة .. وخاصة بعد أن تلألأت في عينيه أضواء (الفيلا)، وطفقـت روائح زهور الليمون الهائجة تضمخ الجو من حوله .. كان يـود ألا يترك هذه اللحظات تفر من بين يديه؛ لذلك قرر أن يدور حول سـور (الفيلا) كما كان يفعل في الماضي .. فكر أن يبتعد عن الناس ولـو لبعض الوقت حتى يسترجع كل ذكرياتـه الفائتـة .. لكـن قدميـه وضميره الاجتماعي حالا دون ذلك، عندما التقطت أذنـاه صخبـا وضجيجا ينطلق من خلال النوافذ المشرعة لحجرة الاستقبال (بالفيلا) .. لذا آثر على نفسه أن يؤجل استرجاعه لذكرياته الحلوة إلي وقـت أخر ..حتى يتمكن من الوقوف على هذا النزاع الفائق الذي يضطـوم داخل (الفيلا) .. فأسرع الخطى إليهم وكأنه يهب لإنقـاذ غريـق أو إطفاء حريق.

لم تكن تلك الجلبة سوى النزاع بين المزارع جمعة العـلاوي وأهل زوجته .. ووصل النزاع إلي قمته عندما صمم علـى طـلاق زوجته وذهابها إلي بيت أبيها بأطفالها الأربعة، أو يسدد أخوها مبلـغ الثلاثة آلاف جنيه التي اقترضها من أخته في غياب زوجها للعمل في إحدى دول الخليج .. كان جمعة يبكي في حضور الجميـع ومنـهم العمدة الحاج أيوب والأستاذ جمال موضحا أن الثلاثة آلاف جنيه هي

شقاء عمره في نار الخليج ورطوبته التي كانت تخنق أنفاسه .. لقـــد أرسلهم على دفعات مع زملائه القادمين من هناك .. كان دائما لديـــه إحساس قوي بأنه سيموت هناك .. لذا خاف أن يضعهم فـــي البنـــك باسمه هو .. وقد سمع من زملائه هناك ((ومنهم ناس متعلميــن)) أن الحكومة تأخذ أموال الذي يموت، ولا تعطي لأهله وأولاده إلا مبلغـــا صغيرا جدا .. ((قلت أولادي أحق بمالي من الحكومة .. الحكومـــة عندها فلوس كثيرة .. لكن أولادي اليتامى سيحتاجون إلي كل قــرش ليتربوا .. لكني عندما حضرت لقضاء شهر الإجازة، وجدت ســعيدا أخا زوجتي ألعن من الحكومة .. أخذ منها فلوسها .. دون أن تستأذن مني .. أخذها منها سلف .. ولما طلبتها منه قال لي بالفم الواسع أنـــا لم آخذ منك شيئا .. وما لك عندي أي شئ .. حرام يا ناس .. حــرام يا حضرة العمدة يضيع تعبي وشقائي!))

شرد جمال للحظات هامسا لنفسه بدهشة: ((نفس حكاية ســعد مع ابنته تتكرر بشكل جديد .. فلوس الخارج التي يطمع فيها الجميـــع .. المصريون المنتحرون حبا لجمع المال في الخارج .. يضحـــون بحياتهم وعمرهم من أجل حفنة مال؛ ليحسنوا مستواهم المعيشـــي .. لكن الطامعين واللصوص يتربصون لهم هنا .. إن معظم المشـــاكل التي تهز كيان الحياة في الكفر في هذه الأيام تتفتق من صوب العمـــل في الخارج .. في كل يوم خميس وجمعة تتلى علي مسامعه أمثـــال هذه الحكايات بصورة أو بأخرى و...))

وانتزعه من مناجاته لنفسه صوت عمه الحاج أيوب يســـأله فجأة : ((ما رأيك يا أستاذ؟))

استجمع جمال انتباهه، ثم تطلع إلي الحاضرين .. وجد مـــن بينهم سعيدا أبو خليل أخا زوج جمعه، والمتهم بأخذ الفلوس من أختـه وسأله جمال بشكل مباشر دون لف أو دوران : ((هل أخذت الثلاثـــة آلاف جنيه يا سعيد من أختك؟))

بعد تردد كأنه يستطلع قصد جمـــال مـــن الســؤال: ((نعــم يأستاذ.. أنا لا أنكر أنني أخذت المبلغ من أختي على سبيل السلف.))

سأله جمال من جديد: ((هل لديك النية في السداد؟))

أجاب سعيد دون تردد : ((طبعا يأستاذ .. لازم أســـدد كــل المبلغ .. لكن ليس الآن .. لقد اشتريت بـــه قطعـــة أرض مجـــاورة لأرضي .. وسأقوم بالسداد بعد جمع القطن هذا العام.))

استدرك جمال موضحا: ((لكن القطن أمامه وقت طويـــل .. ألا يمكن السداد من المحصول الحالي..قمح أو برسيم؟))

هز سعيد رأسه معترضا بقوله : ((لن أستطيع .. لأن هنـــاك مبلغا متبقيا علي من ثمن الأرض .. وعلي شيك لصــــاحب الأرض لابد أن أسدده في موعده .. بعد شهر تقريبا وإلا دخلت السجن .. هل يرضيكم أن أدخل السجن .. بينما زوج أختي لا يستطيع أن يصـــبر علي ؟!!))

استدار جمال إلي جمعه أبو علاوى وسأله مستفسرا: ((هـــل سترجع مرة ثانية يا جمعة إلي الخليج؟))

أجاب جمعة بعد أن تفحص وجه الحضور جميعهم تقريبا ثـــم توقف عند الأستاذ جمال وقال: ((إن شاء الله يا أستاذ .. بعد شهر.))

سأله جمال: ((ومتي سترجع- إن شاء الله- المرة القادمة؟))

رد عليه جمعة: ((مثل هذه الأيام من العام القادم))

وكأن العمدة بذكائه قد فطن إلي ما يفكر فيه جمال من حـــل لهذه المشكلة فالتقط الخيط من جمال وتدخل قائلا : ((هكذا ظـــهرت الرؤية يا جماعة .. ما دام سعيد معترفا بالمبلغ ولديه نية الســـداد .. ولكن لحين ميسرة .. وما دام جمعه مسافرا بعد شهر .. وبالطبع كل همه هو أن يحفظ حقه، لذلك أنا أرى أن أفضل حل هـــو أن يكتـب سعيد على نفسه إيصال أمانة، وسيشهد عليه والده وأخوه .. وسيبقي إيصال الأمانة معي أو مع الأستاذ جمال .. ويسافر جمعة بالســـلامة وهو مطمئن .. عند جمع القطن يقوم سعيد بتســـليم المبلـــغ ويتســـلم إيصال الأمانة .. بهذا نضمن حق جمعة .. ويعيـــش مـــع زوجتـــه وأولاده شهر الإجازة في سلام وانبساط .. وجمعة يحدد لـــــي لمـــن أعطي المبلغ حين استلامه .. ويا دار ما دخلك شـــر .. مـــا رأيكـــم جميعا؟)).

بعد فترة صمت وترقب لم تطل تم تبادل النظـــرات الحـــادة المرتابة بين أطراف النزاع، بادر سعيد أبو علاوى قائلا بـــإخلاص: ((أنا موافق يا حضرة العمدة .. وأنا مستعد للتوقيع علي أية ورقـة .. أنا نفسي أسدد .. لكن الظروف صعبة)).

وفرش السكون عباءته علي المجلس مـــن جديـــد واتجـــهت الأنظار كلها إلي جمعة لاستطلاع رأيه .. ولما تأخر في إبداء رأيـــه أو تعقيبه على كلام سعيد بادر العمدة سائلا : ((ما رأيك يا جمعة؟.. بهذه الطريقة يمكنك أن تعتبر الفلوس موجودة معك .. وأنا الضـــامن لها .. ولا داعي للمشاكل .. أنت رجل طول السنة تناضل وتشقى .. لا تحرم نفسك من المتعة خلال إجازتك القصيرة هـــذه مـــع أولادك وزوجتك المحروم منهم طوال السنة)).

زحفت ابتسامة طمأنينة وارتياح إلي كل وجه جمعـــــه، ورد علي كلام العمدة بسؤال –للتأكيد وزيادة الإحساس بالثقـــة– : ((هـــل ستضمن هذا الكلام ياحضرة العمدة ومعك الأستاذ جمال؟)).

أجاب كل من العمدة وجمال بعد أن فاضت الابتسامات علـــي وجهيهما؛ لإحساسهما بقرب الانفراج وانتهاء المشكلة: ((بـــالطبع .. نضمن ذلك –إن شاء الله–)).

وفي الحال كان الأستاذ قد كتب الصيغة المناسبة التي تضمن حق جمعة عند سعيد، الذي نهض ووقعها أمام الجميع عـــن طيـب خاطر، وضمنه أبوه وأخوه، واحتفظ بها العمدة الذي صـــاح فرحـاً طالباً من سعيد أن ينهض لتقبيل رأس جمعه زوج أخته، لأنه ضيفنـــا جميعاً وواجب علينا الاحتفاء به .. ولم يتكاسل ســـعيد بـــل رحـب بالفكرة ونهض من فوره متجهاً إلي جمعه، الذي نهض هـــو الأخـر فرحاً فارداً ذراعيه ليحتضن سعيداً .. وتم اللقاء وسط الجمع المحتشد مما جعل السعادة تتطاير كوريقات ملونة لامعة مع هبة ريح لتســتقر في الصدور.

لم يتوقف الأمر ليلتها عند أصحاب هذا النزاع .. بل كان من بين الحضور أيضاً في المجلس نفسه، الحاج محمد منصور ومعه ابنه ياسر الحاصل علي دبلوم التجارة منذ عامين .. لم يعين حتى تاريخه .. ثم إنه كلَّ بحثاً عن عمل يشغله عن حياة الضياع التي يحياهـــا .. لكن دون جدوى .. وأخيراً جعلوا نهاية طوافهم الحاج أيوب .. فربما حاول تعيينه بواسطة واحد من معارفه في مركز فاقوس أو بواســطة أقاربه في القاهرة..

وتطوع الأستاذ جمال بأخذ البيانات الكاملـــة عـــن ياســـر، ووعدهم أنه سيبذل جهده لدى بعض أصدقائه ممـــن يعملـــون فـــي شركات المقاولات..

لم يكن بالطبع مجيء جمال الأسبوعي إلي الكفر مدعاة إلـــى الراحة والاستجمام لكي يغسل بهما عناء وجهد أيام الأسبوع المنصرم

ما بين قاعات المحاكم وساحات القضاء من جهة، واستقبال العمــلاء في مكتبه من جهة أخري .. ربما كان مجيئهم مصدر راحة وسـعادة لنسمة التي تنفرد بأمها تبثها أسرارها الخاصة، وكذلك لعمر طفلـهما الذي بدأ يخطو خطواته الأولى، ويجد في الكفر المكان المناسب للعب طفل .. السعة وخضرة الحديقة والسعي الوئيد خلف الفراشات التـي تشاكسه وتنتقل طائرة مبتعدة عنه إلي زهرة أخرى ويبكي ببراءة مادا يده وأصابعه الصغيرة تجاهها .. كأنه يتوسل إليها أن تتوقف وتستقر في مكانها حتى يلعب معها .. هكذا كانت تتخيل نسمة وهـي تتـابع عمر خطوة بخطوة .. فتسبح في ضحكاتها الحلوة شاعرة بـالعطف والحب لهذا المخلوق الصغير اللذيذ الذي يشبه أباه إلـي حـد كبـير بالرغم من أنه شق من خالص لحمها .. وتفيض بها الشـفقة لنـبرة التوجع في بكائه .. فلا تتحملها .. تنهض إليه .. ترفعه في الهواء ثم تضمه إلي صدرها الفخيم معتصرة له، وممطرة لوجهه وكل أعضائه الطرية اللدنة بالقبلات الملتهبة تود لو تمتصه قطرة قطـرة .. ممـا يدفع جمال لمداعبتها، وكأنه يشعر بالغيرة من طفله فيهمس في أذنـها دون أن يلحظه أحد من الأسرة: ((لا تنفقي كل قبلاتك الحارة الحلوة على عمر .. لن يتبقى لي منها شيء)) .. فتتسـع ابتسـامتها وقـد تخدرت أوصالها لما يوحي به جمال من كلمات هامسة لعوبة، فيعمها خجل أنثوي مثير مما يدفعها إلي مغافلة الحاضرين من أهلها لتـهمس له في حياء يتجرأ: ((كل واحد منكما له وقته وطريقتـه)) وينفجـر الاثنان في الضحك اللطيف، مما يلفت نظر الحاج والحاجة فيشـملهما معا أحاسيس فياضة من الهناء والسعادة .. يتبـادلان معـاً ابتسـامة خاطفة مفعمة بالمعاني الكثيرة .. لذا كانت زيارة جمال ونسمة لـهما مصدر سعادة وراحة يتشوقان إليها من الأسبوع إلي الأسبوع .

لم يعبأ الدكتور أنور كثيرا بهذا التعب الذي يقبض ظهره بمخالبه؛ لطول انحنائه فوق السجلات العديدة في الشهر العقاري التي أحضرها صديقه، ووضعها أمامه طالبا منه البحث بنفسه .. فالعملاء اليوم عددهم يزيد عن بقية أيام الأسبوع إنه يوم السبت .. ثم إن الدكتور أنور يطلب منه شيئا صعبا إلي حد ما .. فهو لا يعرف على وجه الدقة تاريخ التوكيل المطلوب عنه الصورة .. لذا أحضر لسعدية مقعدا وجلست في أحد أركان الحجرة منزوية .. كانت خائفة مضطربة.. تدعو الله في كل لحظة أن ينتهي موضوعها على خير .. ولا يأتي أبوها بالصدفة السيئة إلي الشهر العقاري في هذا الوقت بالذات .. حتى لا يفشل كل التخطيط .. الرسم الذي تم بمعرفة جمال صفي الدين حيث أنه من المفترض أن تقوم سعدية – بمجرد العثور على تاريخ التوكيل ورقمه في السجلات بالتقدم بطلب لإلغاء التوكيل .. ثم الذهاب به في الحال إلي قلم المحضرين بالمحكمة وتكليفهم بإعلان أبيها بهذا الإلغاء بشكل رسمي وعلى يد محضر .. حتى تبطل أي تصرفات قانونية من قبل سعد بمقتضى التوكيل السابق .. وكما أوضح لهم الأستاذ جمال أن هدفه من ذلك أن يسد الطريق على سعد لو كان يفكر في نقل الملكية إلي الزوجة الجديدة أو حتى إلي أي إنسان آخر .. وكذلك يهدف إلي إيقاظ سعد من وهمه الذي يعيش فيه .. ينتبه إلي أن هذه الأموال التي بين يديه ويستثمرها هي في الحقيقة أموال ابنته سعدية، أعطتها له بمقتضى توكيل سحبته منه .. سيكون بعدها في حالة يمكن معها التفاوض معه على استرجاع معظم أموال سعدية إن لم يكن كلها .. لكن كل هذا التخطيط يمكن أن يفسد لو أنهما رأيا فجأة سعدا يقف فوق رأسهما وهما هكذا في الشهر العقاري .. فلاشك أنه – وبصوته الجهوري – سيفتعل شجارا مع زوج بنته، وقد يصل الأمر إلي ضرب ابنته أمام الجمهور .. وقد يحملها قسرا إلي بيتها، وقد يفكر في طلاقها من الدكتور أنور كما فعل مع زوجها

السابق فرج عندما قرر أن يحتفظ بأموال ابنته لنفسه .. دفع له خمسة آلاف جنيه وطلقها منه .. بعد نزاع طال في المحكمة .. كان توتـــر سعدية يتفاقم ويتفاقم داخل أعصابها كلما استغرقت في هذا التوجـــس .. حاولت أن تقرأ القرآن بينها وبين نفسها؛ حتى تبعد عنــــها هــذه الهواجس المرعبة .. لكنها ولفرط رعبها مما قد يقع لو اقتحم عليـــها أبوها فجأة المكان، كانت غير قادرة على التركيز .. كــــانت تنســـى الآيات القرآنية التي تود استحضارها .. كانت تتابع زوجها بقلق بالغ وهو يستميت في البحث بين السطور عن الاسم والتاريخ .. لســـعها الذعر أكثر من مرة عندما سمعت صوتا جهوريا أجشا كصوت أبيــها .. كانت تسرع وترفع غطاء رأسها – الطرحة السمراء – لتستر بــها وجهها حتى يخفيها عن القادم بشكل تلقائي .. وتحمد ربــــها عندمـــا يذوب الصوت بين الأصوات في الغرف المجاورة ويختفــــي .. ولا تملك – كرد فعل لكل رعبها وهواجســـها – إلا أن تحــث زوجـــها وتتعجله لإنجاز المهمة بسرعة .. ومع أنها لم تبح بمخاوفـــها التـــي تزلزلها إليه .. إلا أنه كان يستشعر الخطر أكثر منها .. فهو يعـــرف سعدا، ويعرف كيف يمكن أن يتصرف في مثـــل هــذه الأحـــوال .. سيتهمه بالسرقة، وبتحريض ابنته عليه كأدنى اتهام ممكن أن يلصقــه سعد بالدكتور أنور .. سيهلهل كرامته وشخصيه في حضور الجميـــع .. سيكون حديث كل مدينة فاقوس وضواحيها ((سيحكي الناس عـــن الدكتور أنور حسن طبيب الطب البيطري بوحدة الطــــب البيطـــري بفاقوس .. وكيف تشاجر معه صهره وسبه وضربه لأنـــه يريـــد أن يسرق زوجته الثرية .. سيقول الناس الكثير .. وتكون الفضيحة فـــي حضور صديقي ابن الجيران محمد مسعود .. سينقل الصورة مبالغـــا فيها إلي أهل قريتي ميت العز .. سيشمت في الكثـــيرون منـــهم .. سيزيد تأنيب أمي))

لذلك كان تركيز الدكتور أنور موزعا ومشتتا إلي حد كبير .. فعين من خلف نظارته السميكة تتابع الأسماء في السجلات .. وعيـــن أخري تثب إلي أي طيف يتحرك قريبا منه .. كان يفكر في الوقـــت

نفسه في الكلمات الدفاعية التي يمكن أن يرد بها علي سعد في مثـــل هذه الأحوال .. وسأل نفسه أكثر من مرة إذا ما كان من المحتمـل أن يقع تشابك بالأيدي بينهما .. وإذا ما وقع مثل هذا التشـــابك .. هـل يصل مع سعد إلي آخر الدنيا ويضربه ويلقنه درسا لم يأخذه في حياته .. لكن المشكلة الحقيقية تكمن بالنسبة له في عدم وثوقه تمام الثقة في موقف سعدية آنذاك .. فربما فكر أبوها – كرد فعل طبيعي لو ضربه – في طلاقه منها، وعليه سيتقدم في اليوم نفسه إلي النيابـــة مقدمـا إيصال الأمانة بمبلغ الثلاثة آلاف جنية المهر الذي يحتفظ به لمثل هذا اليوم .. وبالتالي عليه أن يطلق ويدفع مؤخر الصـــداق .. العشـرة آلاف جنيه .. وفي خضم كل تلـك الدوامــة مـن التوتـر والقلـق والتوقعات المرعبة كان يتفجر الدكتور أنور ضيقا متوجها إلي سعدية بتأنيب كبير رادا على حثها المتواصل له لإنجاز المهمة : ((أو يوجد في هذه الدنيا امرأة بلهاء مثلك لا تعرف شيئا عن توكيل عام أعطتـه لآخر؟!!..أنت وأبوك هكذا..لا يأتي من ورائكما غير التعب!!))

وتفكر سعدية في الرد عليه بأن هذا الآخر الذي يتكلم عنـــه ليس سوى أبيها الذي توسل إليه ذات يوم ليتزوجها .. لكنها تدرك في اللحظة الأخيرة أنها تجلس في مكان عام .. ولا مجـــال للنقـاش أو العتاب هنا .. ثم إن الأهم من ذلك كله أن يتم الأمر كلـــه بسـرعة ودون ما تأخير أو مشاكل .. وقبل أن يثب سعد مثل العفريت بينـهما .. ثم أنها بدأت تشعر بالعطف تجاه زوجها الذي غرق في عرقــه .. فهو بين لحظة وأخري كان يخرج منديله الأبيض الذي اتسخ ليمسـح عرق وجهه وعينيه .. وكانت نفخاته النارية توشك أن تحـرق ورق السجلات العديدة التي أمامه..

وظل مستمرا في البحث حتى عثر عليه أخيرا .. وفي الحال ارتفع صوته مناديا على صديقه الموظف في الحجرة المواجهة لـه .. قدم محمد مسعود متسائلا بنفاد صبر: ((أخيرا عثرت علـــي الاسـم يادكتور أنور؟!!)).

تنفس الدكتور أنور بارتياح وهو يقدم لــــه الســـجل مشـــيرا بإصبعه حيث يوجد الاسم وقال له يتعجله : ((نريد على وجه السرعة صورة منه أولا .. ثم سنقدم الآن إلغاء للتوكيل)).

ابتسم له صديقه ابتسامة ذات معني فهمها أنور نفسه .. ومن ثم مال تجاهه هامسا: ((انتهز الفرصة يا أنور كي تعمل لك توكيـــلا عاما لكل أملاكها الآن..دق على الحديد وهو ساخن))

لكزه أنور في كتفه في الحال وهو يرمق عيني سعدية؛ مخافة أن تكون سمعت همس صديقه .. همس إلي صديقه في أذنه كـــالبرق: ((ليس الآن يا أهبل!!)).

ثم رفع صوته كأنه لم يسمع شيئا، أو كأنه لم يقل أي شـــئ : ((بسرعة يا أستاذ محمد من فضلك .. أمامنا بعد هذا مشـــوار إلـــي المحكمة .. نريد أن نلحقها اليوم .. نحن في سباق مع الزمن.)).

هز محمد رأسه ضاحكا: ((تحت أمرك يا دكتور.. دع المدام تكتب طلبا باسمها هي، وتوقع عليه بتوقيعها..هـــل معـــها البطاقـــة الشخصية؟.. نريدها أيضا.. سأتفرغ أنا بنفسي لإنجاز طلباتك)).

في الحال انصرف الموظف إلي الحجرة المقابلة التي يعمـــل بها مصطحبا معه السجل .. لم يتركه أنور ويجلس منتظرا له بجوار سعدية التي كتبت الطلب المراد وقدمت لهما البطاقة الشخصية فـــي صمت كامل .. فقط كانت تسألهما عن المكان المخصص لتوقيعها من الطلب أو في السجل الذي سيتم فيه إلغاء التوكيل .. بل لحقه أنـــور زيادة في تشجيعه على سرعة إنجاز المطلوب .. وبقيت سعدية فـــي مكانها المنزوي التي تتعمد أن توارى فيه نفسها بعيدا عن المـــارة أو الناس الذين قد يعرفونها، فضلا عن أبيها الذي لم يزل يشاكس خيالها .. لكن تلك الكلمات الهامسة التي تم تبادلها بين صديق أنور وبيـــن

أنور زوجها .. وتلك الابتسامات بمعانيها التي التقطتها وفكت شفرتها ورموزها في الحال .. وقع كل شئ أمامها بسرعة وفي لمح البصــر .. لكنه استقر في كل عقلها الواعي .. أزاح إلي حد كبير أحاســيس ومشاعر الخوف التي كانت تعتريها لمقدم أبيها فجأة .. تركت الملعب بكاملة للتفكير الحزين فيما وقع أمامها منذ لحظات .. همست لنفســها باكتئاب وأسى: ((زوجي هو الآخر يفكر في التهام مــا قــد يتبقــى مني؟!! .. يريد مالي هو الآخر؟!! .. يبدو أن أمي كانت علي حــق عندما دعت متمنية دوام الفقر .. لم أر في حياتي يوما حلوا .. حتــى منذ كنت طفلة صغيرة .. كان زملائــي ينفــرون منــي .. كــانوا يضربونني إذا اقتربت منهم .. وعندما ابتعدت عنهم لــم يــتركوني أيضا .. كانوا يلقون على الحجارة والسباب .. لم يكن لهم نداء علــى غير بنت سعد الأقرع .. كنت ذليلة بينهم .. كنت أكره أبي لأنه لــم يحمني منهم!!..بل كان يضربني أنا عندما كنت أذهب إليه شاكية!!.. إلي أن وصل الأستاذ جمال وبدأ يحنو علي ويشعرني بقيمتي .. منــذ ذلك اليوم بدأت أحلم بأشياء كثيرة .. لكن في مواجهة صــوت أبــي المرعب كانت تتبخر كل أحلامي .. فلقد كنت أحلم بأن أحصل علــى شهادة الإعدادية .. وأبديت لأبي رغبتي في الالتحاق بمعهد المعلمات .. ثار في وجهي ثورة لم أشهدها من قبل .. كان كالعاصفة الــهوجاء التي تقتلع من أمامها كل شئ دون تمييز .. سخر مني ومن أحلامــي البسيطة .. ضخم في حجم أحلامي، صورها لي مثل جبال شاهقة .. من المستحيل عليه هو بفقره أن يصل إليها، نهرني مسفها ((يجــب أن تحلمي علي قدك وقد أبيك .. أنت لست بنت العمدة .. أنا لا أملك أموالا مثل الآخرين كي أنفقها على تعليمك في مدينة فاقوس .. لقــد صبرت عليك حتى حصلت على الشهادة الإعدادية .. خضوعا لرغبة الأستاذ جمال .. وكذلك لأن المدرسة الإعدادية لا تكلفني شيئا .. أنت تذهبين إليها علي قدميك وأنت وحدك تتحملين المشــاق .. الأســتاذ جمال كان يتطوع من نفسه لمساعدتي في بعض الدروس بدون أجــو .. لكن المعلمين مرحلة طويلة ومكلفة خمس سنوات من المصــاريف الحارقة .. وبعد كل ذلك تعملين معلمة .. وقبل أن أسترد منك مليمــا واحدا من الفلوس التي حرمت منها نفسي وأخواتك وأمك يأتي واحــد ابن كلب لكي يتزوجك ويأخذ مرتبك!! ..لا..أنا لست مغفلا)) وضاع حلمي الكبير في المعلمات وفي الزواج من الأستاذ جمال .. وخاصــة

عندما رأيت الأستاذ يشجع أبي علي إلحاقي بمدرسة التمريض .. ومعناها أن أبي لن ينفق على مليماً واحدا منذ أن تقبل أوراقي في مدرسة التمريض .. حتي عندما حصلت علي عقد عمل في السعودية لم يهنأ بالي .. بل في الحال راح يشككني في زوجي الذي تزوجني خصيصا من أجل أن يكون محرما .. حتى تستوفي الشروط لدخول السعودية .. ظل أبي يخيفني منه .. ((أنه يطمع في مالك .. قد يأخذ أموالك ثم يطلقك)) لذا لم أر أي غضاضة في أن أستجيب إلى نصيحة أبي، وأبعث إليه براتبي كل شهر تقريبا .. أو على الأقل ما كان يتبقى من راتبي وبسبب ذلك .. شعر زوجي السابق فرج بعدم ثقتي فيه .. وكان ذلك أول طريق المشاكل التي ثارت بيني وبينه .. ولم نتفق في يوم من الأيام .. منذ أن دس أبي في أعماقي السحيقة أنه لا يحبني وإنما يطمع فقط في مالي وفلوس السعودية .. وبالرغم من أنني أنجبت منه طفلتي الأولي عزة .. إلا أن أبي لم يرتح إليه أبدا .. وأخذ مني هذا التوكيل العام؛ كي يستثمر أموالي .. لم أكن أستطيع أن أحاسبه .. كنت أخاف لو سألته عن المال وتطوره وحجمه الآن .. كان حتما سينطلق في وجهي كمدفع مقللا من قيمتي .. وموضحا أنني أشك فيه .. وأنني في نهاية الأمر ابنة غير بارة .. كان دائما يتهمني بكل العيوب التي فيه هو .. كنت أخجل جدا من أن أرد عليه وأقول له بأن الفلوس لم تفسدني أنا .. لكنها أفسدتك أنت .. كنت أتمني بيني وبين نفسي أن أقول له الكثير عندما كان يرفض كل الرجال الذين تقدموا لي رغبة في الزواج مني بعد طلاقي من فرج، وجلست في بيته بعد أن انتهي عقد عملي من السعودية .. كان يرفضهم بحجة أنهم طامعون في مالي .. لذا لم يفكر في زواجي أبدا إلا بعد أن تقدم الدكتور أنور إليه .. تعجبت ودهشت لأن أبي وافق عليه وجاء ليسألني الموافقة .. لم أرفض بالطبع .. فمن أنا حتى أرفض دكتورا .. أنا لست مغرورة بمالي .. وفي الوقت نفسه لم ينسني المال –الذي يسيطر عليه أبي– بأن الله لم يعطيني القدر الكافي من الجمال الذي يغري الرجال بالحب والزواج وخاصة عند غياب المال .. وكنت أعلم جيدا كما قال لي أبي أن الدكتور لم يتقدم راغبا في الزواج إلا طمعا في المال .. لكن أبي وعدني بأنه سيكون متيقظا له .. لن يسمح له بأن يستغلني أو يخدعني أو يظلمني في يوم من الأيام .. لذا كتب البيت الذي بناه لي بجوارهم في الكفر بالطوب

الأحمر لكي أتزوج فيه الدكتور أنور كتبه باسمي أنا .. شـــدد علـــي أكثر من مرة بالحذر منه .. لا بيع ولا تنازل عن البيت إلي زوجـــي .. وبقيت مطمئنة في كنف أنور الذي أحذر منه في حماية أبي الـــذي يستثمر أموالي لي .. كنت أصد زوجي دائما عندما بدأ يلمـــح لـــي بضرورة استرجاع أموالي من أبي .. كنت أتذكر لحظتها تحذيـــرات أبي لي منه .. لم أنس للحظة أنه لم يتزوجني إلا طمعا في المـــال .. فإذا ما حصل عليه قد يتركني .. يطلقني ويهرب حتى ولـــو كنـــت أنجبت منه دستة أولاد .. فما دام حصل علي المال هدفه الأساسي فلا يهمه بعد ذلك .. فزواجه مجرد صفقة .. صفقة لا أكثر .. ســـيهرب إلي امرأة أخري إذا حصل عليها .. لكن المصيبة كانت أكـــبر ممـــا كنت أتوقعه .. لم يهرب زوجي بأموالي إلي امرأة ثانية .. بل أبي – الذي كان يحذرني من زوجي – هو الذي فعلها!! .. فعلـــها بـــاقتدار مستغلا ثقتي المطلقة فيه.. غير خائف مني ولا من أمي .. فهو حـــر طليق من أية أوراق أو عقود تكبل تصرفاته غير المسئولة .. اســـتغل التوكيل العام استغلالا سيئا .. ثم يتهامس الآن أنور وصديقه حـــول عمل توكيل له!!.. هل جننت أنا؟! .. ربما يتصوران أنني بلـــهاء .. هل يمكن أن ألدغ من الجحر مرتين .. لن أكتب توكيلا عامـــا لأي مخلوق مرة أخري .. وليحلم أنور كما يشاء .. لكن فقط لأنتظر حتى ينتهي هذا الأمر على خير .. أتخلص من أبي أولا .. وبعدها سأتولى أمري أنا بنفسي .. سأستثمرها بنفسي .. حتى ولو رفض الدكتـــور زوجي .. ولو أراد أن يطلقني فليفعل غير آســـفة عليـــه .. لقـــد آن الأوان لكي أتخلص من خوفي وسلبيتي .. لن أواجه حياتي من خلف رجل مرة أخري و.......))

لم يمهلها زوجها الدكتور أنور كي تكمل عزمها وتخطيطـــها لحياتها القادمة .. بل أقتحم عليها أفكارها وحجرتها حاثا لـــها علـــي النهوض حتى يتوجها معا إلي قلم المحضرين في المحكمة لإعـــلان أبيها بإلغاء التوكيل العام .. وبعدها يمكن الاتصال تليفونيا بالأســـتاذ جمال ليخبرهما ماذا يفعلان بعد ذلك.

نهضت في الحال غير مصدقة أنها أنهت كل المطلوب في الشهر العقاري بخير دون أن يوقفها مجيء أبيها..

لملمت طرحتها، ونفضت ثوبها الأسود الفضفاض ووثبت أمام زوجها خارجة مجتازة لزحام يوم السبت في الشهر العقاري.. بمكاتبة الكثيرة المحشورة في شقة أضيق من رئتي المصاب بالربو.

عندما أنهي الدكتور أنور وزوجه كل المطلـــوب منـــهما .. وقاما بتسليم قلم المحضرين الإعلان الرسمي بإلغاء الوكالة لم يكـــن أمامهما إلا الاتصال بالأستاذ جمـــال فـــي المنصـــورة .. وبـــالفعل اصطحبها إلي سنترال فاقوس، ومن هناك قام بالاتصال مـــن داخـــل كابينة خشبية أغلق بابها جيدا وبإحكام تام عليه هو وزوجته .. تحسبا من أن يسمع أحد من المنتظرين لدورهم في الاتصال ما قد يصـــدر عنهم من آراء أو خطط بينهم وبين الأستاذ، وينقله الهواء إلي أذنـــي الحاج سعد .. لكن المكالمة لم تطل .. لأن الأستاذ طلب منهما مشددا أن يتوجها إليه فورا إلي مسكنه في المنصورة .. وأقسم أنه لن يتناول هو وأسرته الغداء إلا معهما .. ومهما حاولا الاعتذار عن ذلك فلـــن يقبل منهما أبدا .. وبالرغم من الرفض من جانب أنور وسعدية إلا أن كليهما كانت لديه رغبة غامضة وخفية في الذهاب إلي بيت الأســـتاذ في المنصورة .. ربما من قبيل حب الاستطلاع والمعرفة .. فكيـــف يكون بيت الأستاذ المتزوج ابنة العمدة .. وكيف يؤثث بيتـه .. وذوق نسمة في ديكورات بيتها .. لكن الذي أبهج الدكتور أنور حقا هو أنـــه بطريقة ما سيكون قريبا من زوجة الأستاذ .. من نسمة .. ســـيكون قريبا منها وقد يسلم عليها بيده لو هي مدت له يدها .. كان في كـــل مرة يراها من مسافة بعيدة فيرتعش قلبه، وتستولي علي كـــل كيانـــه قشعريرة إعجاب لهذا الجمال المتألق .. كان يحسد جمالا على أشـياء كثيرة لا يملكها هو، لكن أهمها هو زواجـــه .. أو تصميمـــه علـــى زواجه من امرأة على هذا القدر الخرافي من الجمال .. لقـــد ازدادت جمالا فوق جمالها بعد الزواج .. شعرها الأسود .. عيناها السوداوان الواسعتان بشرتها اللامعة (كالبلاستيك) ملامحها الرقيقة .. طولـــها المناسب وجسدها الممتلئ بالأنوثة .. أشياء كثيرة أســـترجعها فـــي مخيلته عندما قبلا دعوة جمال لهما علي الغداء .. تمني لحظتها لـــو ذهب إليه مفرده .. فهو يحب أن يختلس النظرات إلي الجميلات فـــي

أثناء سفره .. وخاصة أنه سيسافر إلي أكثر المدن المشهور بجمال نسائها .. كان يود ألا تكون معه سعدية .. إنها من هذا الصنف من النساء اللواتي لا ترحمن ولا تتركن رحمة ربنا تنزل على أزوجهن!! .. فلا هي جميلة .. ولا تترك زوجها يمتع عينيه بجمال الأخريات .. هو لن يسلك سلوكا مشينا معهن .. لكنه فقط يحب أن يملأ عينيه الفارغتين من جمال بنات حواء الحقيقيات .. لكنها .. وكأنها تغار عليه تنبهه بالهمس مرة أو باللكز في فخذه مرة ، بأنه من العار عليه أن يحملق في النساء هكذا مثل المراهقين .. وتعقب التنبيه بتذكيره بأنه متزوج وأن زوجه تجلس بجواره .. فيضطر للكذب والنفي وبأنها تتوهم أشياء لا تقع .. وأنها تفعل ذلك بدافع الغيرة لأنها تحبه .. ثم يمط شفتيه بعيدا عن عينيها ساخرا..

بينما كانت سعدية تتمنى أن تري الأستاذ في بيته .. كيف يكون .. كانت تود أن تراه علي طبيعته مع زوجه وطفله الصغير عمر .. كيف يتعامل معهما .. كيف يأكل .. حتما ستختلس نظرات سريعة إلي عينيه الخضراوين المتألقتين .. أحبته وهي تلميذة صغيرة ليس لحنانه وعطفه الزائد عليها فقط .. لكن أيضا لعينيه الجميلتين .. أحست بالسخرية من نفسها؛ لأن أحلام طفولتها كانت أطول من قامتها وقامة أبيها .. سألت نفسها بتمني لو كان الجميع يتجمعون علي مائدة واحدة .. ستختلس النظرات حتما إلي الأستاذ وهو يتناول طعامه .. لابد أنه رقيق حتى في طريقة تناوله الطعام .. وتريد أن تتعرف على نفس نسمة في طهي الطعام هل لها نفس أم لا .. وانتفضت فجأة عندما تذكرت الطريقة البشعة التي يتناول بها زوجها أنور الطعام .. وكيف أنه يأكل طعامه – حينما يندمج اندماجا تاما – بيديه الاثنتين وبوحشية وبملء شدقيه الاثنين .. لا يتوقف للحظة كي يأخذ نفسه، أو يستريح للمضغ .. كأنه في سباق ويصر علي الفوز .. كانت تشعر بالاشمئزاز منه في أول زواجها منه .. لفتت نظره أكثر من مرة .. لكنه لم يقلع عن أسلوبه الذي يبدو أنه شب عليه وسيشيب عليه .. لذا لم تجد غير التسليم بواقعه كحالة مستعصية .. لكنها الآن

تشعر بنذير فضيحة في الأفق .. فحتماً ســيغريه طعــام نســمة .. وبالتأكيد سينسي نفسه ومن حوله .. سيأكل بيديه وقدميه .. ســيثير قرف كل الموجودين .. لذا وجدت نفسها مضطرة لأن تقــول لــه: ((يجب أن تشتري سندوتشات لنأكلها قبل الذهاب إلي شقة الأستاذ)).

وما أن سمع ذلك حتى نظر إليها مستغرباً دهشاً .. وخمــن بينه وبين نفسه أن سعدية قد فقت عقلها حتماً.. وذكرها أن الأســتاذ ينتظرهما على الغداء .. ومعني هذا أنه قد أعد لهما ما لذ وطاب من صنوف الطعام والحلوى.. وقال لها ساخراً: ((بالعكس .. يجــب أن نمشي مسافة طويلة قبل أن نصل إليه..رجل جهز نفسه..ولا يجب أن نخسره .. يجب أن نجوع تماماً؛ حتى يكون إقبالنا على الطعام بشهية جيدة!!)).

أوشكت أن تصرخ في وجهه، وهي تركب بجواره في الحافلة التي تقلهم من فاقوس إلي المنصورة .. لقد رأت الفضيحة ماثلة أمــام عينيها .. فضيحتها هي في زوجها الذي لا يشرفها ولا يرفع رأســها أمام الآخرين .. حتماً يريد أن يتحول إلي وحش!!.. فقالت بغضــب: ((أولاً لا داعي لكي أذكرك بطريقتك في تناول الطعام .. لكن الأهــم من ذلك هو أن هؤلاء الناس وإن كانوا متواضعين ويرحبون بنا فــي بيتهم فيجب من ناحية أخري أن نشعرهم بترفعنا .. وبأننا لسنا مــن ربائب الموائد .. وأن همنا الأول هو حل مشكلتنا وإرجــاع أموالنــا التي استولى عليها أبي)).

لم يغضب ولم يعقب بكلمات كثيرة .. بالرغم أنه كان علــى وشك الانفجار منها، وسبها عندما ذكرته بطريقته في تناول الطعام .. لكنها في الوقت نفسه ذكرته أنها علي وشك أن تسترد كل أموالها من أبيها .. لم يبق إلا خطوات قصيرة ويكسب الصفقة كلها مــن ســعد الأقرع .. لذلك كظم غيظه، ولم يعلق إلا بكلمتي ((معك حق)) .. ثــم أردف موضحاً هذا الحق الذي يقصده فقال: ((يجب أن نترفع عنــهم

وعن طعامهم .. بمجرد أن نصل إلي المنصورة .. سندخل مطعماً .. نتناول فيه الغداء)).

يبدو أن توقعات الدكتور قد خابت تماماً .. فلم يكن من عـادة جمال أن تستقبل زوجته رجالاً أو تسلم علي أحد إلا من أقاربـها .. وما دام الدكتور وزوجته مجرد زبائن عمل – حتى ولو كـان لـهم علاقة تاريخية به .. فلم يكن من جمال إلا أن استقبلهما في حجـرة الاستقبال .. جلس معهما بعد أن تناول غداءه بدونهما بعد أن أقسـما أنهما لا يستطيعان ابتلاع لقمة واحدة .. وأنهما قد سـبقاه وتنـاولا الطعام .. فغضب وعاتبهما لهذا التصرف .. لكنه بسـلوكه العملـي والواقعي الذي اكتسبه منذ أن امتهن المحاماة، أهمل كل هذا وطلـب من سعدية الدخول عند الحاجة وأم عمر لأنهما في شوق إلي السـلام عليها والترحيب بها .. وبقي هو في غرفة استقبال الضيوف مرحبـاً بالدكتور أنور الذي يوشك أن يتفتق صدره غيظـاً .. اعتـبر هـذه الرحلة بلا فائدة وثقيلة الظل .. وتنبأ بينه وبين نفسه بأنه سيعود منها مغموماً .. فلا طعام .. ولا نساء .. لكن سعدية ومشكلة سـعدية .. وربنا يستر في الآتي..

يبدو أن توقع الدكتور أنور لم يكن مبنياً علي محض الخيـال والوهم .. لأنه تساءل بينه وبين نفسه .. كما أنه سأل سعدية السـؤال نفسه الذي حيره: ((لماذا لم يطلب منك الأستاذ عمل توكيل لـه فـي الشهر العقاري ليتولى عنك رفع الدعوى علي أبيـك؟!!)) .. وهـذا السؤال نفسه هو الذي بدأ جمال صفي الدين حديثة الهام والذي شـدد علي ضرورة حضورهما معاً إلي بيته في المنصورة من أجله .. قال لهما : ((وإن كنت لا أنسي أبداً أني محام .. إلا أننـي لا يمكـن أن أنسى العلاقة القوية والطيبة التي تربطني بكم .. فأنت يا سعدية فـي منزلة ابنتي .. كما أن أباك في مكانة أخي .. وهو لم يزل وسـيظل أباك .. لكن مع ذلك كله أنا مصمم على أن يعود إليك حقك منـه .. وهذا أمر لا نقاش ولا تهاون فيه .. لكن ما أحببت أن أوضحه لـك

هنا وبعيدا عن أهل الكفر .. وقبل أن اتخذ أية خطوة هي الطريقة .. الطريقة التي يمكننا أن نحصل بها علي هذا الحق .. هل نصل معــه إلي القضاء وتقفين أنت وأبوك علي طرفي خصومة ؟!! .. وقد يأتي الحق أو لا يأتي .. كما أن مسائل القضاء المدني تحتاج إلــي وقــت طويل إلي أن يصدر فيها الحكم .. قد تصل إلي سنوات .. لذا أنا من رأيي – والرأي الأخير لك – أن نحاول التفاهم مع والــدك بطريقــة ودية.. بعيدا عن المحاكم...))

لم يستطع الدكتور أنور كبت مشاعر الحنق والرفض التــي مارت في أعماقه لسماعه هذا الكلام من الأستاذ .. وأية طريقة سلمية أو ودية هذه التي يهذي بها .. أحس بندم حقيقي لأنه اختار الأســتاذ محاميا في هذه القضية بالذات .. إن حصول زوجته على مالها مــن أبيها أمل كبير وخطير وهام بالنسبة له .. لكن أيضا كان يحلم بـاليوم الذي يقف فيه سعد الأقرع ذليلا أمام ابنته فــي المحكمــة .. أمــام القاضي .. وقد يحكم عليه أيضا بالسجن لتبديد الأمانة .. لقــد حلــم بذلك كثيرا، وكانت نصف سعادته عندما اكتشف أن سعد قد تــزوج من زوجة ثانية – أنه سيتشفى فيه عندما يري الشجار والمعارك بينه وبين زوجته وبناته، وخاصة سعدية التي سرق مالها وتزوج بــها .. وبعد هذا يأتي هذا المحامي المسمي بالأستاذ جمــال صفــي الديــن ويتحدث عن الحل السلمي والودي ؟!!! لذا هتف مقاطعــا بغضــب: ((هذا الحل الودي الذي تقول به يا أستاذ قد يصلح مع بعض الناس .. لكنه بالتأكيد لن يصلح مع عمي الحاج سعد !! .. أنــت تقــول أنــه صديقك .. لذلك كان يجب أن تكون أنت أعرف من غــيرك بمــدى عناده وقسوته حتى على أقرب الناس إليه!!))

يبدو أن الأستاذ جمال فوجئ تماما بالتدخل الغــاضب مــن جانب زوج سعدية .. فكر لبعض الوقت .. فكر أن يقول له إن هــذا الأمر يهم سعدية فقط .. فكر أن يسأله عن سبب هذا التشــدد الــذي يبديه تجاه الحل الودي .. لكنه أدرك أن سعدا بأسلوبه القاســي فــي

التعامل مع الآخرين منذ أن تحكم في أموال ابنتـــه .. ربمـــا طـــال الدكتور أنور بقسوته .. لذلك قرر جمال أن يعالج الأمر بحكمة أكثر، وبهدوء فقال موضحا للدكتور أنور : ((يا دكتور .. هذه طريقة تتبع عادة بين أفراد الأسرة الواحدة .. وخاصة إذا كانت بيـــن الأصـــول والفروع .. وعلى أي حال فإن زمام المبادرة سيظل في يدينا .. فـإذا لم يستجب الحاج سعد للحل الودي وركب رأسه وعاند – كما تتوقـــع – فلن نخسر شيئا .. المحكمة ستظل موجودة وفي الحال سأطلب من سعدية توكيلا لرفع الدعوى .. لكن يجب أن نسلك النهج الـــودي أولا .. حتى لا يلقي عليكم أحد بأية لائمة .. ما رأيك يا سعدية ؟))

يبدو أن سعدية قد ارتاحت تماما إلي رأي الأستاذ بقدر عـــدم اطمئنانها إلي انفعال زوجها المغرض .. فهي تدرك أن زوجها يحـب ويتمني أن يشعلها نارا بينها وبين أبيها .. وألا يكون بينها وبين أبيها أي صفاء .. حتى يمكنه بعد ذلك أن ينفرد بها هي وحدها .. بعيـــدا عن أهلها .. لقد سمعته وهو يفكر مع صديقه في الشهر العقاري فـــي توكيل عام له من قبلها .. لذلك لم تتردد فـــي تزكيـــة رأي الأســـتاذ بإخلاص : ((علي بركة الله يا أستاذ.. يجب أن نسلك أولا الطريقـــة الودية.))

هكذا عاد الدكتور أنور كما توقع – مغتمـــا غـــير منشـــرح الصدر .. فلقد تطور الحديث بعد ذلك بين الأستاذ وسعدية عن بعض العقارات التي قد يتمسك بها سعد كمكافأة له علي تعبـــه واســـتثماره للمال .. وهنا تدخل الدكتور أنور للمرة الثانية بإصرار وتصميم علي عدم التنازل عن مزرعة الدواجن التي يشرف عليها هو بنفسه .. لكن لا مانع من التنازل عن المدرسة الآيلة للسقوط .. أو عـــن مؤسســـة المقاولات ومستودع الأسمنت .. بالرغم من تدخله في أشياء لا تعنيه أصلا .. إلا أن الأستاذ كان يستمع إليه باهتمام ويســـجل لديـــه كـــل اقتراح يقترحه .. بينما كانت سعدية تراقب الحوار الدائر بين زوجها

الدكتور أنور وبين الأستاذ في صمت .. ترد فقط إذا استفسر منـــــها الأستاذ عن رأيها في تصرف معين..

في نهاية الجلسة وعدهم جمال أنه سينتظر حتى الغد؛ حتـــى يصل إعلان إلغاء الوكالة إلي سعد .. وبعدها بيوم واحد .. سيضطر إلي النزول إلي فاقوس على غير عادته حتى يلتقي الحاج سعد فـــي متجره .. وتمنى أن يوفقه الله، وينجز هـــذا الأمـــر بشـــكل ســـريع ومناسب للطرفين؛ حتى تظل العلاقات متينة بين الحاج ســـعد وبيـــن أسرته القديمة دون اللجوء إلي القضاء .. لكن هذا التصرف لم يعجب الدكتور .. ولم يخف ضيقه من ذلك عن سعدية أثناء عودتـــهما فـــي الحافلة إلي فاقوس فهمس ساخرا: ((أيعتقد في نفســـه أنـــه مصلـــح اجتماعي؟!!)).

أجابت سعدية شبه غاضبة، وقد خمنت مقصد زوجها لكنـــها فضلت أن تتغابى: ((من هو؟!!))

فأجاب زوجها بنبرة مفعمة بالســـخرية: ((الأســـتاذ جمـــال المحامي .. بصراحة أنا غير مطمئن إليه......))

قاطعته سعدية بحزم: ((أرجوك .. لا تتكلم بهذه الطريقة عنه .. لا تنسي أنه أستاذي وصاحب الفضل علي قبل أن يكون محاميا .. أنا عن نفسي أثق فيه كل الثقة))

بالرغم من هذا البركان الذي تفجر في أعماق أنـــور عندمـــا سمع زوجته تعارضه وتناقض آراءه في رجل غريب مثل جمال، إلا أنه ابتلع كل ما فجره البركان وحفظه في مكان ســـحيق .. قـــرر أن يحتفظ به إلي حين .. إلي اليوم الذي ستكتب له فيه توكيلا عاما بـــدلا من أبيها ((في ذلك اليوم .. سنري كيف سينفعها هذا الذي تثق فيـــه كل الثقة .. يومها سأنال منها.. يومها سألقنها درسا لـــــن تنســـاه ..

سأتزوج بامرأة أخري .. ستكون جميلة .. ستكون أجمل من نســـمة زوجة جمال .. لحظتها سأبصق في وجه جمال لو جاء لي كي يحـل الخلاف بيني وبين سعدية بشكل ودي! .. لن تنال مني مليما واحدا .. سآخذ كل مالها لي أنا .. سيكون تعويضا عن خســـارة نفســي أنــا الدكتور الذي تزوج ممرضة قبيحة المنظر ومطلقة ولها من زوجــها السابق بنت .. ويا ليت تشعر هي بمدي فداحة ذلك ومدي تضحيتـــي .. لكنها وأباها يتعاملان معي كما لو كانا أفضل مني .. لكن سأنتظر .. سأصبر .. من العقل أن أنتظر وأصبر)) .

في هذا العام علي وجه التحديد ، تصادف أن هل علي الدنيا شهر رمضان المبارك مع بداية العطلة للسنة القضائية .. بزغت فكرة في ذهن الأستاذ جمال، ولقد باركتها علي الفور كلا من أمه الحاجة وكذلك زوجته نسمة، فلقد قرروا جميعا أن يقضوا شهر رمضان في كفر مفتاح .. وقالت أم جمال مؤيدة رأي ابنها حالما عرض الفكرة، وما زال حنينها إلي أيامها الجميلة التي قضتها في كفر مفتاح كامنا في أعماقها السحيقة: ((في الريف يكون رمضان أكثر بهجة ومتعة))

كما علقت نسمة من خلال ابتسامة حالمة ورقيقة طوقت بها عيني جمال: ((علي أن نشتري فانوس رمضان الملون لعمر .. سنجعله يشعر بأول رمضان يعيه عندما يرى أطفال الكفر بفوانيسهم وغنائهم احتفالا بشهر رمضان))

ابتسم لها جمال وقد أومأ بالموافقة.. لكنه شرد في الحال إلي أيام طفولته في الحي الشعبي بمدينة الزقازيق .. تذكر أباه وكيف كانت سعادته تفيض على قسمات وجهه الطيب، وكلماته الهادئة عندما يعود قبيل شهر رمضان بأيام وقد احتضن فوق صدره فانوس رمضان وأكياس الياميش، كان –رحمه الله– يتعمد ألا يلفه في ورقة أو يواريه في كيس، وكيف كان أباه يحس بالبهجة والسعادة عندما كان يقدمه إلي جمال، بعد أن يمطره بالقبلات الأبوية الحانية .. كان يتمني له أن يطيل الله في عمره حتى يأتي اليوم الذي يشتري فيه الفوانيس إلي أولاده .. كان يضيف له قائلا: ((لا تكتف بطفل واحد– إن شاء الله– يا جمال تنجب لي عشرة أطفال)) .. أفاق جمال من شروده متمتما بقراءة الفاتحة لروح أبيه داعيا الله له بالرحمة .

لم يشأ جمال صفي الدين أن يمر رمضان بكفر مفتاح هـذا العام كأي رمضان سابق .. فكر في أن يولم وليمة كبيرة لكل أهـل الكفر .. سيكون إفطار أول يوم في رمضان عنده في دوار صـهره الحاج أيوب مفتاح .. ستكون فرصة للتقارب بيـن النـاس بعـد أن شتتتهم دنيا المال والتكالب والتصارع على عرض الدنيـا .. لكـن الحاج أيوب فاجأ جمال بعدم حماسة للفكرة!! .. وحتى يخفـف مـن مشاعر الإحباط التي بدت في وجه الأستاذ، أردف موضحا الأسباب: ((إن تلك العادات الريفية الطيبة في الإفطار الجماعي في الدوار فـي شهر رمضان، لم يعد يهتم بها أحد من أهل الكفر، في الماضي كـان أهل الكفر كبارهم وصغارهم ينتظرون شهر رمضان خصيصا لتلـك التجمعات، لعلك تتذكر يا أستاذ كيف كانت ليال حافلة، يجتمع فيـها جميع أهل الكفر على الحب والخير، وكيف كنت أحضر في كل عـلم أحد المشايخ لإحياء ليال الشهر الفضيل .. لكن منذ سـنوات .. بـدأ الناس يتخلون عن هذه العادة .. حتى وصل الأمر إلي أنني ومعـي بعض الأقارب -ربما لا يزيدون عن الخمسة فقط- نحافظ علـي أن نفتح الدوار ونتناول الإفطار فيه .. مخافة أن يمر بـالكفر غريـب صائم ولا يجد من يفطره .. لم يعد الحال كما كـان مـن قبـل يـا أستاذ!!))

تساءل جمال دهشا: ((لكن لماذا ياعمي الحاج؟!..لقد كـانت من أجمل العادات الرمضانية كيف يتخلى عنها الناس؟!!))

هز العمدة رأسه عدة مرات، وراح يهدهد بيده اليمني فـوق الرأس العاجية لعصاه، ثم واصل توضيحه لجمال: ((ألم تقتنع بعد يـا أستاذ أن الناس قد غيرتهم الفلوس؟!!...))

وأراد أن يكمل توضيحه بعد هذا السؤال لكن جمال قاطعه مستغربا: ((المفروض أن يتغيروا إلي الأحسن والأفضل يا عمي الحاج..إلي التجمع وليس إلي القطعية والعزلة!!)).

عقب العمدة بقوله: ((شتان يا أستاذ جمال يا ابني بين المفروض والواقع..لكنني في الواقع عندما رأيت هذا التناقص في عدد الناس -في السنوات الماضية- لم أسكت، ولم أقبل بالأمر الواقع، بل قابلتهم وعاتبتهم علي تخلفهم عن الحضور كعادتنا في الشهر المبارك، وكيف يكون رمضانا دون أن نجتمع مع بعضنا في الإفطار الجماعي .. ونواصل السهر في سماع القرآن والتواشيح الدينية..كان ردهم غريبا..كل واحد منهم اعتذر بأن أولاده -ومعظمهم متعلمين وسافروا إلي الخارج وعادوا بالمال- يحولون دون مجيئه إلي الدوار .. بحجة أنها عادة قديمة وتعتبر رمزا للتخلف والرجعية.....))

قاطعه جمال محتجا: ((التعاون والترابط والتكافل الاجتماعي أجمل الأخلاق الإنسانية والإسلامية أصبحت رمزا للتخلف والرجعية؟!! .. هؤلاء الناس بالتأكيد لا يعون ما يقولون .. فقط يردد كل منهم شعارات لا يفهمها .. هذا أمر لا يجب السكوت عليه يا عمي الحاج..))

تساءل الحاج في يأس: ((وماذا ستفعل يا أستاذ؟!! .. هؤلاء الناس في الحقيقة لا يقولون السبب أو الأسباب الحقيقية .. في اعتقادي أن هناك أسبابا أخري خلاف ادعائهم بما يقوله أولادهم..))

تعجله جمال في التوضيح فسأله: ((مثل ماذا ياعمي الحاج؟!!))

رد الحاج بابتسامة هي مزيج من اليأس والسخرية: ((برامج التلفزيون مثلا..وكيف أنها مكدسة بالشيق والمثير للصغار والكبار..كما أن ارتفاع المستوى المادي للبعض من أهل الكفر دون البعض الآخر أثار بينهم نوعا من الحساسية غير المرئية .. فالغني منهم لا يحب أن يراه أحد -وخاصة غير القادرين- عندما يتناول طعام إفطاره الفاخر الدسم في هذا الزمن الذي شوهه الغلاء..وفي الوقت نفسه فإن الفقراء تمنعهم عزة أنفسهم عن الاجتماع مع من هم أفضل منهم..سيتعرون أمامهم عندما يري الناس أن طعام إفطارهم بسيط جدا وخالي من اللحوم...كما تري يا ابني المشكلة لا حل لها))

قبل أن يرد جمال على عمه الحاج معارضا ليقول له أن أي مشكلة لها حل..وقبل أن يقول له أن حلها في يد شباب الكفر قبل شيوخها..وقبل أن يعرض عليه الفكرة التي لمعت في ذهنه مع نهاية حديثة، سمعا معا وهما يجلسان منفردين في حديقة (الفيلا) الخلفية - جلبة وضوضاء غير عادية..انتبها إليها مهملين لكل ما كان يجري علي لسانيهما..وإذ بمصدر الصوت يفيد إليهما من داخل (الفيلا)..عندما استدار جمال إلي باب (الفيلا) الموصل إلي الحديقة عبر سبع درجات رأي زوجته نسمة تجذب يد امرأة تتمنع عن النزول معها إلي الحديقة، حيث يجلس جمال ووالدها العمدة.. شيئا فشيئا برزت المرأة مجتازة الباب مع نسمة هابطة الدركات .. فإذ بها سعدية بنت سعد تتقدم إليهما تتكبل بخجلها وأسفها من أن تكون قد اقتحمت عليهما خلوتهما في وقت غير مناسب .. هب جمال واقفا مرحبا ومادا يده إليها مشجعا لها على التقدم نحوهما دون حرج..ورحب العمدة أيضا .. في الوقت نفسه الذي تبعها هي ونسمة الشغالة تحمل لهم جميعا مشروبا تحية للضيفة .. كان العمدة وجمال يجلسان فوق المصطبة الواسعة بين شجيرات الليمون الخضراء ونسمات عصرية رقيقة تمرح عبر المكان وتلامس مصادفة جلود الجالسين فتنعش مشاعرهما وتفتح شهيتهما للحوار الناعم والهادئ المخلص بين ابن وأبيه .. فلما وصلت إليهما كلا من نسمة وسعدية

أوسعا لهما مكانا للجلوس معهما .. غير عابئين بمـــا اعتـــذرت بـــه سعدية عن هذا المجيء المفاجئ .. لكنها الضرورة .. فليس لها أحـــد في الكفر يقف معها في محنتها غير الأستاذ وعمـــها الحـــاج عمـــدة الكفر .. لكن كل الذي أقلقهما هي هذه الدموع المتدفقة مـــن عينيـــها المحمرتين، وهذا النشيج الذي تتحفظ عليه .. كأنه من العيب عليـــها أن تصيح باكية في حضورهما.. لذا تعمدوا جميعا إلي التشديد عليـها بالجلوس والراحة أولا، ثم شرب العصير .. وبعد ذلك تحكـــي مـــا جري .. ولم تتحفظ نسمة علي مشاعر الحزن والألم التي أحست بـها عندما رأت سعدية في هذه الحالة.. وكانت هي الأخرى تواقـــة إلـــي سماع هذه الفجيعة الجديدة .. بعد أن خلصها جمال زوجها من فجيعة زواج أبيها من قبل، وأمكنه أن يحل الموضوع بينهما بطريقة ودية .. واستطاع برضاء الطرفين أن يرد إليها بعض العقارات مثل المزرعة التي كان يصمم عليها زوجها الدكتور أنور .. ولـــم يشـــأ ســـعد أن يتنازل عن المدرسة أو مصنع الطوب .. لكنه فقط سمح لها بأن تأخذ منه الخمسة أفدنه التي قام بتجريف تربتها منذ سنوات فتجمعت فيـــهم المياه وتحولت إلي مجرد برك تحتوي علي ماء راكد آسن لا نفع من ورائها .. وأعطاها أيضا مبلغ عشرين ألف جنيه نقـــودا ســـائلة .. ورضيت سعدية بذلك .. ولم تستجب إلى إلحاح زوجها عليها بفكـــرة اللجوء إلي القضاء لمحاكمة أبيها؛ لذا أخذت نســـمة تـــهدهد برقـــة وتعاطف على ظهر وكتف سعدية مهدئة لها وملحة عليها أن تخفـــف من انفعالها؛ حتى تتمكن من أن تقص كل ما جري لها لعلـــها تجـــد لديهم الحل لمشكلتها .. كذلك خاطبها جمال مطمئنا بأن كل مشكلة لها حل .. عليها فقط أن تتوقف عن هـــذا البكـــاء العـــاصف، وتحكـــي حكايتها..لكنها لم تتمالك نفسها واستمرت في البكاء الملتاع..لـذا رأي جمال أنه من الأفضل أن يستدرجها ببعض الأسئلة؛ لعلها تتمكن مـــن السيطرة على هذا التشنج الذي استولي عليها تماما، فقال مستفســـرا بإخلاص: ((هل أولادك بخير ؟))

أجابت متعثرة وبصعوبة: ((نعم..بخير))

مط جمال شفتيه متعجبا، وعاد يسأل: ((الدكتور أنور صحته جيدة؟))

وكأنه ضغط بعنف علي بؤرة الألم.. فصرخت في وجه الحاضرين بشكل عفوي رغما عن إرادتها لدرجة أنهم جفلوا جميعا.. وكان أكثرهم ذعرا نسمة، التي ارتجت فجأة مأخوذة، مما جعل عينيها تتبللان بالدموع هي الأخرى، ومن ثم تنحدر الدموع غزيرة من عينيها.. وواصلت الهدهدة علي ظهر سعدية بيد وتكفكف دمعها هي بكفها الثانية.. وأخيرا نطقت سعدية بكلام متقطع موجوع: ((منه إلى الله..زوجي أنور..هو السبب..الخائن قليل الأصل...))

ولم تتوقف سعدية حتى وضحت لهم كل شئ وقع من زوجها الدكتور أنور الذي أراد أن يلعب دور أبيها من جديد.. وصمم أن تكتب له توكيلا عاما مثلما فعلت لأبيها .. مرة يغريها بأن التوكيل سيعطيه الفرصة ليتحرك في السوق أكثر، ويستثمر أموالها، وأن مال الزوجة هو مال الزوج.. لا فرق بينهما ما دام بينهما أولاد .. وعندما كانت ترفض بحجة أنها لم تعد تثق في أحد بعد ما فعله أبوها .. كان يعود إليها مهددا ومنذرا بالطلاق .. وعندما لم يفلح معها ترغيبه أو تهديده لمدة شهر مضى، ومنذ أن نقل سعد ملكية العقارات إلي ابنته ووضع في حسابها مبلغ العشرين ألف جنيه .. في أول الأمر ظل يلح عليها أن تدفع مبلغ الثلاثة آلاف جنيه لأبيها وتأخذ منه إيصال الأمانة .. فكرت بينها وبين نفسها أنها لو فعلت ذلك، وأعطته إيصال الأمانة سيحفظ تصرفها هذا جميلا، وسيتصرف معها بإخلاص الزوج.. لكنها فوجئت بتقلبه، وتغير أسلوبه معها .. صار فظا غليظا .. دائم السخرية منها ومن أبيها محدث النعمة .. ووصل به الأمر إلى السخرية الدائمة من شكلها.. بدأ ملمحا ثم مصرحا.. ومع ذلك كانت تتحمله.. من أجل الأولاد.. وحتى لا يقول الناس عنها أنها لا تفلح كزوجة، وطلقت للمرة الثانية.. كانت تتحمل منه كل هذا العذاب

دون أن تشكو لأحد .. حتى أمها نفسها لا تعلم شـــيئاً عمـــا حـــدث بينهما..((كنت أكبت كل ذلك داخل صدري خلال الشهر الماضي كله لم أفكر أبداً في أن أبوح به لأي مخلوق .. حتى ليلة أمـــس، قالـــها صريحة إما الطلاق.. أو تثقي في وتكتبي لي توكيلاً عاماً.. وبـــالطبع كان ردي هو الرفض .. فهذا الرجل ما دام يصر علي هذا فلا يمكـن أن أثق فيه .. وكيف أثق في رجل آخر، بعدما وقع من أبـــي؟!! .. ولذلك ذهب .. جمع ملابسه ورحـــل عنـــي وعـــن أولادي وشـــهر رمضان علي الأبواب.. وفي الحقيقة أنا لست حزينة علي رحيله مـن أجل نفسي .. ولكن من أجل ولديه .. ومع هذا كله لم أعبأ برحيله .. لكن اليوم .. في الصباح .. جاء العامل الذي يشتغل في المزرعـة .. مزرعة الدواجن وأخبرني أنه لا يوجد علف للدجاج يكفيه ليوميـن .. وبعدها سيموت الدجاج كله إن لم نحضر العلف .. طبعاً فـــهمت أن أنور –عديم الضمير– قد اختار هذا التوقيت بالذات لكي ينفذ تـــهديده بالرحيل.. يعلم أن الدجاج ليس لديه علف.. ويعلم أنني قليلة الحيلـــة في هذا المجال.. والوقت ضيق.. وما أن عرفت أن حضرتك وصلت اليوم يا أستاذ حتى أتيـــت إليـك وإلـــي عمـــي العمـــدة مســـتغيثة بكما..أرجوكما.. أنا لا يهمني أن يرجع أنور أو لا .. المهم الآن هـو إنقاذ دجاج المزرعة..إنقاذ روح عشرين ألف دجاجة))

توقفت عن الكلام بصعوبة بالغة وعادت مرة أخري لـــذرف الدموع.. وما زلت نسمة بجوارها تهدهد على ظهرها مشـــجعة لـــها على الجلد والصبر .. مطمئنة لها بأن المشكلة ســـتحل بـــإذن الله .. كانت تكلمها وهي تنظر إلي أبيها بعينين متوسلتين لمساعدة ســـعدية حتى تتوقف عن البكاء.

أما العمدة فقد قلب يديه معتذراً، لأنه ليس له أيـــة خـــبرة أو علاقة بالناس المشتغلين أو المهتمين بتربية الدجاج، وعندمـــا ســـألها لماذا لا تستعين بخبرة أبيها في هذا المجال.. فهو بالتـــأكيد يعـــرف الأماكن أو الشركات التي تبيع العلف .. وبالتأكيد يمكنه أن يحل لـــها

المشكلة بسرعة .. اعتذرت قائلة بثبات وعناد: ((لو مات كل دجاج المزرعة عشرين مرة لن الجأ إلي أبي أبداً؛ لأنني واثقة من أنه سيشمت بي، ويذلني لأنني قمت بإلغاء التوكيل.. لا لن أذهب إلي أبي..حتى لو مات كل الدجاج.))

في اللحظة نفسها كان جمال غارقاً بالتفكير عمن يمكنه أن يخرج سعدية من هذا المخرج.. طفق بسرعة يقلب في صفحات ذاكرته عن الإنسان المهتم بموضوعات مزارع الدجاج، ويمكن أن يمد له يد المساعدة العاجلة..فالوقت حاسم تماماً..وليس هناك مجال للتعاطف مع سعدية أو للنقمة على زوجها، لكن الموضوع بالنسبة له كيف ينقذ روح عشرين ألف دجاجة من شبح الموت؟!! .. وبطرقة مفاجئة من زناد عقله، ومضت أمام عينيه صورة الحاج درويش الجمال..

على الفور رفع جمال صوته منادياً الخادمة ومعها التليفون .. خلال دقائق كان قد تكلم مع الحاج درويش الذي وعده بتحقيق كل رغباته.. ولأن سعدية أو جمال لا يعرف أي منهما نوع العلف المطلوب أو الكمية اللازمة حتى نهاية دورة التربية والمدة الباقية لذلك تطوع الرجل خيراً بأن يرسل الليلة –بعد أن أطلعه جمال على المشكلة– الطبيب البيطري الذي يشرف علي مزارعه ليحدد نوع العلف المطلوب والكمية المطلوبة.

في اللحظة نفسها التي وضع جمال سماعة التليفون منهياً كلامه بالشكر الجزيل للحاج درويش قائلاً له أن هذا جميل ومعروف لن ينساه له أبداً.

وبينما بدت سعدية كالمجنونة الحائرة بين ابتسامتها الشاكرة لجمال، و بين دموعها وبكائها على حالتها المأساوية، داهمها الأستاذ

جمال بسؤال لم تفكر فيه من قبل: ((هل لديك من يعتني بمزرعة الدواجن في حال إحجام الدكتور أنور عن مساعدتك؟))

حملقت سعدية في وجه الأستاذ طويلاً، لم تجبه بحرف واحد،وفتحت فمها بعد لحظات في محاولة منها للإجابة بشيء، لكن تضاريس وجهها استحالت جميعها فجأة إلى سؤال من صخر((كيف بي لم أفكر في هذا الاحتمال من قبل؟!!إن أنور قرر أن ينتقم مني، وبالتالي فكل احتمالات الانتقام واردة، لقد قرر أن يؤكد لي أنني بدونه لا أساوي شيئاً، بدونه سأضيع ويضيع مالي و...))

لم يشأ جمال أن يترك سعدية في أحضان شرودها أطول من هذا، فاقتحم صمتها بسؤال آخر: ((سعدية..هل لديك خبرة بإدارة مزرعة الدواجن؟))

أومأت سعدية بالنفي، ثم أجابت من بين دموعها التي استأنفت تدفقها من جديد: ((ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك؛ فلقد كان كل اعتمادي على والدي ثم على أنور، لم أفكر أبداً في أن يحصل من كل منهما كل هذا الذي حصل!!))

هون جمال الأمر عليها، ووعدها أن يذهب أولاً لمقابلة الدكتور أنور لحل المشكلة بينه وبين زوجه، وفي حالة رفضه وتعنته سيتفق لها مع طبيب بيطري آخر، يدير لها المزرعة، ولكن بشرط أن تبدأ هي في الاهتمام بتعلم إدارة المزرعة، وكل أموالها بنفسها مشدداً على هذا بكلام حاسم من أستاذ إلى تلميذته: ((إن كل أسباب هذه المشاكل التي تحاصرك، هي سلبيتك واعتمادك على الآخرين في إدارة أموالك، لكن من الآن فصاعداً لابد من الاعتماد على نفسك واكتساب الخبرة في هذا المجال، مفهوم ياسعدية))

هذت رأسها بأسف، معترفة بخطئها: ((معـــك كــل الحــق يأستاذي في كل ما تقول ، وأعد حضرتك أن أكون مثلما أردت مني أن أكون...))

قاطعها جمال ضاحكا: ((لا.. بل مثلمـــا تريديـــن أنــت أن تكوني، يجب أن تكون شخصيتك مستقلة عن الآخرين، وحتى عنـــي أنا، وأن تتحملي كل مسئولياتك بنفسك مفهوم يا سعدية))

وأخيراً رف طيف ابتسامة فوق شفتي سعدية، بعد أن أعادهـا الأستاذ بطريقته في الكلام إلى أيام الدراسة، وكيف كان يجهد نفســـه في محاولة إفهامها الدروس المقررة، بالرغم من تباطئها في الفـــهم، فهتفت بعزم حقيقي: ((أعدك يا أستاذي بألاّ أكرر هذا الخطـــأ مـــرة أخرى، وسأتحمل كل مسئولياتي بنفسي)).

لم تكن مشكلة سعدية فقط هي التي شغلت جمال صفي الدين قبل أن يطرق شهر رمضان أبواب كفر مفتاح، بل ما قاله عمه العمدة بخصوص تقوقع الناس في الكفر حول أنفسهم، وعدم تواصلهم مع بعضهم كما كانوا من قبل، سأل نفسه متحسراً: ((لماذا؟!!..قد يكون هذا الانغلاق على الذات جائزاً في المدن الكبيرة..حيث لا أحد يعرف أحداً..الكل يتوجس خيفة من الكل..حيث أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال فرصة للثقة بهم..لكن هنا؟!!..في الكفر؟!!..حيث يعرف كل إنسان منهم الآخر تمام المعرفة..تربطهم ببعضهم علاقات قرابة أو نسب ومصاهرة..هل يمكن أن يكون التليفزيون وبرامجه المثيرة الشيقة هي السبب كما يقول عمي الحاج..أو تكون الفوارق الطبقية المستحدثة بفعل السفر إلي الخارج هو السبب؟!!))

وكما أن جمالاً لم يهدأ ولم يرتح إلا بعد أن عالج مشكلة سعدية، وأوفي الحاج درويش بوعده للأستاذ، وأرسل الطبيب البيطري، الذي حدد نوع العلف، وأحضره في اليوم التالي مباشرة..وتم تقريباً إنقاذ روح دجاج سعدية، فهو كذلك لن يشعر بالراحة أو الاستقرار النفسي إلا بعد أن يقف على السبب الحقيقي وراء انعزالية الناس في الكفر، ولماذا لم تعد تجمعهم مائدة شهر رمضان كما كانوا من قبل؟!

وعليه فقد وقف جمال صفي الدين عقب التسليم وإنهاء صلاة الجمعة في مسجد الكفر .. وبعد أن سمع المصلون خطبة طويلة وعظيمة عن فضل شهر رمضان – الذي سيبدأ من الغد – على سائر الشهور .. وكيف أن أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من

النار .. وأوضح لهم الشيخ أحمد خطيب المسجد أن الشياطين تقيد وتسجن في شهر رمضان .. وقف جمال صفي الدين وقبل أن يختتم الناس الصلاة وقبل أداء ركعتي السنة البعدية لصلاة الجمعة .. أمسك الجميع عن الكلام أو الحركة .. تحولت كل العيون إلي الأستاذ .. لقد اعتادوا منه التحدث إليهم في الوقائع الهامة والخطيرة .. حبس الجميع أنفاسهم تقريباً حتى تحدث جمال مبتسماً .. وبعد أن هنأهم جميعاً بمقدم شهر رمضان المبارك ((بخصوص هذا أرجو أن ننتظر جميعاً بعد صلاة السنة، أود أن أتحدث معكم، وخاصة الشباب)).

شعر جمال بسعادة فاقت أية سعادة عاشها من قبل؛ وذلك عندما – وبعد أن سلم منتهياً من ركعتي السنة البعدية – رأي جميع المصلين في أماكنهم .. لم يتسرب منهم أحد .. تفاءل خيراً .. ازداد ثقة في نجاح فكرته في جمع شمل أهل الكفر .. أدرك أن الدنيا لم تزل بخير وأن الله لم يزل معه .. ولهذا أشرقت أجمل ابتسامة على وجوه المصلين من بين شفتي الأستاذ الذي وقف في مواجهتهم شامخاً مهاباً متألقاً يشع بحب وإخلاص وتواضع للجميع مما جعل كل قلوبهم تهفو لسماعه قبل آذانهم ثم قال بصوته العذب الهادئ وبعد أن بدأ باسم الله الرحمن الرحيم: ((لا شك أننا جميعاً لنا ذكريات حلوة وجميلة مع شهر رمضان المبارك .. كلنا نتذكر ليالي رمضان الرائعة التي كنت استمتع بمشاركتي لكم فيها منذ سنوات .. نتذكر كيف كنا نجتمع حول طعام إفطار جماعي في الدوار .. وكيف كنا نجتمع لصلاة المغرب والعشاء وصلاة التراويح في المسجد، ثم بعد ذلك نواصل السهر الجميل ما بين سماع القرآن الكريم والتواشيح الدينية من الشيخ عبده العباسي .. وكيف كان السهر يمتد بنا أحياناً إلي وقت السحور .. بين حكاية وحكمة وعبرة وقصة من إخواننا الكبار وآبائنا الذين يفيضون بالخبرة والموعظة الحسنة .. في هذا العام .. وعندما توافق حلول شهر رمضان مع عطلتي، شعرت بحنين عظيم إلي رمضان الكفر الجميل .. حيث الناس واجتماع الأهل والأحباء .. لكن للأسف سمعت أن الناس الآن يفضلون العزلة

.. يغلقون أبوابهم على أنفسهم .. الأبواب .. أبواب الكـــرم والتـــي كانت أكثر انفراجاً في شهر رمضان .. دوار الكفر المفتـــوح علـــى مصراعيه المتلهف لاستضافة أي قادم أو غريب على مائدة إفطاره .. لم يعد يعمره أهل الكفر؟!! .. أقول الحق .. لقد صعقت .. وتسـاءلت لماذا؟ .. في الحقيقة لم أجد إجابة شافية عندي؛ لذلك قررت أن ألجـأ إليكم أنتم لكي نعرف الإجابة .. لكي نضع جميعـــاً أصابعنـــا علـــى موضع الخطأ فينا كي نصلحه .. فديننا الإسلامي يدعونا إلي التراحم والتعاون على البر والتقوى .. يحثنا دائماً على التعـــاطف والتجمـــع والتزاور..إذن لماذا ابتعدنا عن بعضنا؟!! .. لماذا فقدنا وفرطنا فـــي هذه العادات الجميلة؟!!))

توقف يلتقط أنفاسه المنفعلة .. طال التوقف .. أدرك النـــاس أن الأستاذ قد طرح سؤالاً وينتظر رداً؛ فتململـــل الأســـتاذ مـــأمون عبدالباسط معلم اللغة العربية والتربية الإسلامية بمدرسة ســـعد رزق الإعدادية بالكفر، ثم رفع يده طالباً من الأستاذ الكلمة، أشار له جمـــال ليتفضل بالكلام – وكان هو واحداً من تلاميذ الأســـتاذ جمـــال فـــي الابتدائي، فقال بانفعال وصراحة: ((الحق يا أستاذ أنك بهذه اللفتة قـــد ضغطت فينا علي جرح غائر، بالفعل لقد دست بقوة على منبع الـــداء الذي أحال حياة الناس هنا إلي شقاء بدلاً من السعادة .. هذا الداء هـــو هذا الجهاز الخطير المسمى المفسديون، وليس (التليفزيون) .. هـــذا الجهاز ياأستاذي، منذ أن اقتحم علينا بيوتنا جعل كل أسره تفـــترش شاشته وتلتحف بتمثيلياته وبرامجه .. تقوقع الناس حول شاشته ليـــل نهار .. ترك الفلاح زرعه والتلميذ استذكاره .. أهملت الفلاحة حلـب الجاموسة والبقرة .. وخاصة في شهر رمضان المبارك .. المفترض فيه أنه شهر العبادات .. يحوله المفسديون بقدرته إلي شهر التســـلية والفوازير والمسلسلات .. ولأن اللصوص اكتشفوا أن ساعة عـــرض المسلسل هو أفضل الأوقات للسرقة؛ لاندماج الناس في متابعة أحداث المسلسل .. لذا كثرت السرقة .. وبالتالي اضطر الناس إلـــي غلـــق

الأبواب .. خلافا للسابق .. وحتى في شهر رمضان المبارك شـــهر الكرم والجود!!))

ما أن توقف الشيخ مأمون عن الكلام حتـــى مـــاج المكـــان بالضحك، وخاصة من قبل فلاحي الكفر؛ فهم يعرفون مدى تعصـــب الشيخ مأمون، وخاصة بعد أن أطلق لحيته وارتدي الجلباب القصـــير .. ويقولون عنه أنه يحبكها دائما ويشدد الأمور على من حولـــه، ولا يعجبه العجب. لذا كان كلامه بالنسبة لهم مسليا .. لأنـــه لا يعجبـــه التليفزيون الذي يعجب الجميع، وفي الحال رشقهم الشـــيخ مـــأمون بنظرات قاسية ساخرة؛ لهذا الجهل الذي يرتعون فيه كما ترتع الأنعام .. وكثيرا ما كان يقول لهم ذلك فيقولون له وهم يغربون في الضحك على ((الفقي المتشدد)) نحن بهائم يا شيخ مـــأمون؟ وأنـــت وحـــدك الإنسان؟!!.

ومال أحد الفلاحين الشباب إلي جاره، وهمس ســـاخرا فـــي أذنه، في محاولة لتذكيره بما كان عليه الشيخ مأمون من قبـــل ســـبع سنوات فقط .. عندما كان طالبا في الثانوي وكان يخرج للعمل فـــي العطلات الدراسية كخولي ومراقب على الأولاد والبنات عند جمـــع لطع دودة القطن وعند جمع القطن: ((أليس هذا الشيخ مأمون الـــذي بكي متوسلا إلينا كي لا نفضحه عندما قفشناه من حضن حميـــدة أم مبروك ساعة أذان المغرب..كان يقبلها كالجوعـــان)) .. ورد عليـــه جاره هامسا وهو يلكزه في ركبته الملاصقة له: ((اسكت يا أخي ربك أمر بالستر))..

وقطع عليهما همسهما (الباشمهندس) منصور السيد ابن الكفر الذي حصل على بكالوريوس الهندسة المدنية، ولم يعثر على عمـــل منذ عامين وحتى الآن .. كان يرد على الشيخ مأمون بنبرات متحدية رافضة: (أنت يا مأمون دائما يخرج تفكيرك من ثقب إبرة .. دائمـــا تضيق على نفسك وعلى الناس .. جعلت مـــن (التليفزيـــون) وحـــده

السبب الوحيد والرئيسي لتباعد الناس في قريتنا .. بالرغم من أنـــك كنت أكثر شاب فينا يشاهد التليفزيون .. ثم إنك أهملت تماما الآيـــة الكريمة ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغـــيروا مـــا بأنفســـهم)) .. المشكلة يا أستاذ جمال هي أن الناس في الكفر قد تغيرت نفوســـهم .. الناس لم يعودوا كما كانوا هم الناس .. الناس غيرتهم الفلوس .. مـــن حصل عليها تتضخم روحه بالكبر والعنجهية على من لـــم يســـاعده الحظ ويحصل عليها .. ومن لم يحصل عليها؛ لأنه لم يســـافر إلـــي الخارج أو لم يعمل في المعمار أو لم يسرق .. تعف نفوســـهم عـــن التعامل مع محدثي النعمة .. وبالتالي يضطرون إلي البعد واحـــترام مشاعرهم داخل بيوتهم .. سواء عندهم (تليفزيون) أم لا .. من هنـــا نتجت الفجوة الحقيقية ياأستاذ..))

ولكأن الشيخ مأمون قد وجدها الفرصة المناسبة .. فقـــرر أن يصطادها في مواجهة الكفر كله .. لن يجد فرصة أو مناسبة أفضـــل منها لكي يرد لا على منصور وحده، بل ليرد على كـــل الـــهمزات واللمزات التي ترتطم بهوامش ناظريه بين وقت وآخر، وخاصة مـــن أقرانه الذين يعرفون عنه الكثير من معاصيه السابقة .. وكيف كـــان يتسلق أسوار حدائق المانجو ليسرق ما يشاء من ثمـــرات المـــانجو الناضجة في موسم الصيف .. بعد أن ينجح بذكاء وألمعيـــة- كـــان معروفا بها- في مخادعة الخفراء القائمين على الحراســـة الخاصـــة لحديقة المانجو .. بالرغم من أن هؤلاء الحراس غرباء عن الكفـو .. ويصر بعض تجار المانجو الذين اشتروا ثمرها على إحضار خفراء من الصعيد أو من الغربية، حتى لا تكون هناك أية ألفة أو تفاهم بينهم وبين أهل الكفر .. فلا تكون هناك فرصة لمقايضـــة أهـــل الكفـــر، وخاصة المراهقين منهم وطلبة المـــدارس الأشـــقياء فـــي عطلتـــهم الصيفية.. لكن الشيخ مأمون .. وقبل أن يستقيم ويطلق لحيتـــه كـــان يتقمص شخصية اللص الظريف، كان يجد لذة فائقة في التسرب إلـــي داخل الحدائق .. ثم يعود إلي أصدقائه الذين كانوا ينتظرونه بقلـــوب واجفة عن البعد من الحديقة .. وكانوا يتوقعون سماع أي طلق نـــاري

على مأمون .. فخفراء المانجو معهم السلاح .. وطوال الليل يمزقون هدوء مساء الكفر وفجره بالطلقات النارية .. لكن مأمون بشـــيطانيته التي عرف بها بينهم منذ أن كان تلميذا في المرحلة الابتدائية وحتـــى المرحلة الثانوية .. كان يعود إليهم محملا بما يسيل لعابهم من أنـواع المانجو الفخمة واللذيذة كخد الجميل والهندي والسعدي والتيمـــور .. وكان بسعادة وبإحساس بالفروسية يقوم عن طيب خــــاطر بتوزيـــع المانجو عليهم جميعا .. كل واحد منهم حسب النوع الذي يفضلــــه .. والذي كان يثير دهشتهم أنه لم يكن يؤثر نفسه بشيء أفضل منــهم .. كان يكتفي فقط بما تعافه نفوسهم لرداءة النوع .. كان فقـــط يشـــعر بسعادة كبيرة وهو يراهم يأكلون بنهم المحروم .. تذكر مأمون ذلـــك .. وتذكر الفلاحين الذين بكى لهما يوم أن طلبت منه البنت حميـدة أم مبروك –والذي كان خوليا عليها في جمع القطن– أن ينتظرها خلـف جدار زريبة الماشية بعد المغرب .. وما أن أتت وفهم قصدها، ولـــم يكن بالطبع لديه مانع لمبادلتها الحب .. فلكم كانت تتعمد أن ترقـص ردفيها الفخيمين داخل عينيه كلما اقترب منها أو مر بجوارها أثنـــاء انحنائها فوق شجرة القطن، ولكم حاولت إغراءه بتضخيم نهديها داخل جلبابها الضيق .. فكانت تحشو مشدات صدرها قطنا .. كانت تقترب من وجهه أثناء الحديث إليه واضعة صدرها في أنفه تماما، وتســمعه الغنج والتنهدات الحارة التي كانت تذوب فيهما مراهقته الفوارة بشكل دائم .. لذا لم يتمالك نفسه عندما أتت إليه في الموعد وأسلمت نفســها إليه .. وما أن هم بتحسس جسدها واحتضانها غارقا فـــي لـــذة لـــم يجربها من قبل حتى هبطا عليهما كرجلي شرطة فوق لصين .. لـــم يجد أمامه لحظتها غير البكاء والتوسل إليهما .. أما هي فقد أصيبـت بالذهول والوجوم، ولم تتمكن من النطق بكلمة واحدة، كل ما فعلتـــه بشكل تلقائي ستر جسدها، وغلق فتحة صدرها التي فتحتها منذ دقائق لمأمون عن طيب خاطر بوله شبقي أنثـــوي .. وأخـذت ترتجـف وترتجف كأنها مصابة بالملاريا ((ويبدو أن منظرها المثـير للرثـاء والحزن هو الذي خفف من غلظة قلبيهما ورقق مشاعرهما نحونـا .. ولم تكن دموعي وتوسلاتي وحدها هـــي التـــي جعلتـــهما يعتقاننـــا

ويحفظان سرنا حتى الآن..)) لكن تلك النظرات المستهجنة الساخرة لم تزل موجودة في عيونهما كلما تصادف وحملق في وجهيهما .. بالرغم من أن البنت قد تزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد .. ومما زاد من لمعان تلك النظرات في عيونهما، هو تلك الحالة الجديدة التي صار عليها مأمون، وتمسكه بمظاهر السنة من ملابس قصيرة؛ حتى لا تتلوث من نجس الأرض، وكذلك إطلاق لحيته، لكن ما يزعج الشيخ مأمون – كما يحلو للبعض أن يناديه بعد إطلاق لحيته – أنهما غير قادرين على التصديق بأنه استحال إلي شخصية جديدة تماما مظهرا وجوهرا .. وأن معظم أهل الكفر لا يستطيعون أن ينسوا أبدا، أو أن تمحى من ذاكراتهم شخصية مأمون العربيدة الشيطانية التي عاشها في زمن مراهقته، لذا قرر أن يواجه الجميع هنا في المسجد، ويصارحهم بما كان عليه .. وبما آل إليه .. وأنه لم ينس الماضي .. هو يتذكره مثلهم لكنه يندم عليه .. لقد كان ضالا فهداه الله .. وبالرغم من أن الله العظيم يغفر للتائبين .. إلا أن أهل الكفر لا يحبون أن يغفروا له شقاوته في أيام المراهقة .. ولذلك ما أن ادعى منصور السيد وكان في يوم من الأيام شريكا له في شقاوته – أنه يفعل شيئا ويقول وينادي بعكسه .. فهو أكثر من يري (التليفزيون) .. ثم يدعى بأن (التليفزيون) سبب المشاكل في الكفر .. وأدرك أن منصور يومئ إلي ما هو أبعد بكثير من (التليفزيون) .. إنه يسترجم غمز أهل الكفر إلي كلام فيه تورية، فقال مأمون بعد أن طلب الكلمة للمرة الثانية من الأستاذ موجها كلامه ليس إلي منصور وحده بل إلي كل أهل الكفر: ((بسم الله الرحمن الرحيم قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به .... كما قال الله تعالي : والنفس اللوامة))

وبعد أن سرد وقرأ عليهم العديد والعديد من آيات القرآن الكريم التي تتناول التوبة والتائبين ومكانتهم عند الله وأجرهم وثوابهم .. راح يواجههم بكل شئ يعرفونه عنه .. طفق يبين لهم أنه كان من اشقي شباب الكفر ... وبقدر ما كانت شقاوته عنيفة كانت توبته

عظيمة وصادقة، وكان رجوعه إلي الله -تعالى- عن يقين وإيمان حقيقي، كان عن ثقة واعتقاد حقيقي مخلص .. ولذا لم يعد يمثل الماضي بالنسبة له وصمة عار في حياته .. لأن حياته الحقيقية بدأت منذ تاب، وتوقف عن ارتكاب الآثام عن جهل .. وذكرهم أن خالدا ابن الوليد كان يحارب الرسول الكريم والمسلمين عندما كان ضالا وكافرا .. لكنه بعد أن عرف طريق الحق، وهداه الله إلى الإيمان صار سيف الله المسلول .. ومن أجل هذا أرجو ممن يريد أن يحاسبني على شئ، ألا يحاسبني إلا من يوم أن هداني الله، ومنذ التحاقي بالكلية وانقطعت عن رفقة السوء .. نعم كنت كما يقول صديقي منصور كنت مدمنا (للتليفزيون) .. لكن .. وبعد طول تفكير وتحليل اقتنعت أن هذا الجهاز الذي يقتحم علينا بيوتنا بكامل رضائنا هو أس الفساد .. وخاصة على أطفالنا ونسائنا .. فضلا عن تأثيره على الجميع فأقلعت عنه .. ولكن لي كلمة أخيرة إلى الجميع، إذا كنت أنا المذنب الذي تاب ، إلا أنه هناك العشرات من المذنبين لم يتوبوا))

قال هذه الكلمات الأخيرة وهو يخترق بعينين نفاذتين عيون المزارعين اللذين أمسكوا به مع بنت مبروك .. وكأنه يقتل استهجانهما له، وسخريتهما منه التي تطفح بها عيونهما بآخر طلقة معه .. بعدها شعر براحة عظيمة وكأنه قد حط من فوق ظهره كل أحمال الدنيا .. أحس بنقاء بلوري، وطهر كامل يغمر كل كيانه بعد أن غسل ما خفي من نفسه بماء الاعتراف والمصارحة .. ألقى بكل ما يختزنه له بعض أهل الكفر من أخطاء في وجوههم..

بعدها .. ولمدة لحظات ران الصمت على الجميع .. لم يصدقوا أن الشيخ مأمون قد وقف أمامهم معترفا بأخطائه الماضية .. لقد سحب بخفة كل آثامه السابقة التي كانوا يختزنونها له عند الحاجة والمواجهة المتوترة ....

تدخل جمال متداركا لتلك الحالة النفسية التي سيطرت علـــى الجميع، وخاصة أن الشيخ مأمون ركز على وضعهم جميعا في مقابلة ومواجهة مع الله العظيم الذي يغفر بينما هم المخلوقات الضعيفـــة لا تحب أن تغفر .. ليس لأنهم غير قادرين على العفو عمـــا ســـلف .. لكنهم بتذكرهم لأخطائه هو إنما يدارون على أخطائهم هـــم .. بـــل ويزينون لأنفسهم أخطاءهم الجديدة ..

فقال جمال بنفس الابتسامة العذبة : يمكننـــا الآن أن نضـــع أصابعنا على بعض من الأسباب التي تحول دون تعاوننا وتقاربنا كما كنا .. وما دمنا عرفنا الأسباب فلا شك – وبطريقة ضمنية – نكـــون قد وضعنا يدنا على الحلول المقترحة لعودة التقارب والألفة من جديـد .. لكن قبل أن أترك الفرصة لعرض الحلول أحب أن أوجه الدعـــوة لكم جميعا باسم عمي الحاج أيوب وباسمي شخصيا ليلتئم شملنا جميعا على طعام الإفطار غدا –إن شاء الله– أول أيام رمضان المبـــارك .. سيكون التجمع في دوار الكفر .. والحاضر عليه أن يعلم الغائب..

رحب الجميع بالدعوة .. واســـتأنفوا البحـــث فـــي الحلـــول المقترحة .

كانت صراحة الشيخ مأمون غير المتوقعة هي الفرجة التي اتسعت لتتدفق منها كل مشاكل أهل الكفر المعروفة والمجهولة .. كذلك كان هذا النهج من البوح الذاتي، الذي لطم به مأمون خد كل متربص له، المفتاح لطرح كل الحلول المستخرجة من تحت جذور المشكلات الماثلة في أحاسيس وأفكار أهل الكفر..

انفجر معظم الشباب من الخريجين الجدد، الذين لم يعينوا ولم يتسلموا أعمالا بعد، بالرغم من حصولهم على مؤهلاتهم الدراسية سواء المتوسطة أو الجامعية منذ سنوات، وها هم يجلسون في بيوت آبائهم مثل النساء .. طاقاتهم معطلة .. كذلك كانت الشكوى من بعض موظفي الحكومة الذين يسافرون يوميا إلي مدينة فاقوس أو إلي مركز الحسينية المجاور له، وأن مرتباتهم الشهرية لا تكفيهم سفرا، وفي الوقت نفسه لا يمكنهم الإقامة بعيدا عن بيوتهم بالكفر، نظرا لمسئولياتهم العائلية، وكذلك التكلفة العالية لاستئجار مسكن وتأثيثه سواء في فاقوس أو الحسينية، وبذلك لن يتمكن أي منهم من مجرد الحلم في الزواج أو الاستقرار، لم يعد لديهم غير حلم يتيم وهو السفر إلي الخارج، وحتى هذا الحلم الوحيد صار من الصعب تحقيقه، فالسفر يحتاج إلي مبلغ وقدره..

بعض المزارعين وخاصة الذين يمتلكون مساحة شاسعة من الأرض الزراعية رددوا من جديد على مسامع الجميع المشكلة التي يعانون منها منذ فترة ليست قصيرة، منذ أن سمم سعد الأقرع أفكار الفلاحين بشهوة السفر إلي الدول العربية، وكيف أن الشح والندرة قد طالا اليد العاملة الزراعية المدربة، لم يعد هناك الأيدي التي تكفي لزراعة أراضيهم؛ مما أدي إلي ترك الأرض بورا أحيانا، وأحيانا أخري تزرع بدون عناية أو خبرة؛ مما قلل ناتج الأرض من

المحاصيل الزراعية، وصرخوا في وجه الجميع بأن المشكلة لم تـزل قائمة، بل وتتزايد يوما بعد يوم .. مع زيادة هجرة بقية فلاحي الكفـر إلي الدول العربية ليعود كل منهم بالمسجل و(التليفزيـون) الملـون و........

ضج الشيخ مأمون محذرا الجميع من أن مدرسة سـعد رزق الإعدادية ستنهار فوق رؤوس أولاد الكفر، إذا لم يتداركوا الكارثـة بسرعة، وأوضح لهم أن سعدا في كل مرة يقـوم برشـوة مـهندس المباني في التربية والتعليم، الذي يأتي بناء على بعض الشكاوي التي نرسلها محذرين من خطر سقوط البناء فوقنا، وبالتالي فان المـهندس عديم الضمير يكتب تقريره بصلاحية المبني .. لأن سعدا يتقـاضى شهريا مبلغ ثلاثمائة جنيه، ولا يحب أن يفقدهم، حتى ولو كان مقـابل ذلك أرواح أبناء الكفر من طلاب ومعلمين.....

وهنا لم يطق العمدة الصبر والسكوت، بـل رفـع صوتـه بشجاعة سيف يلمع تحت شمس الصيف: ((بالنسبة لموضوع المدرسة الإعدادية سأتحمل أنا وحدي شرف إقامة مدرسة جديدة .. لن تكـون ملكا لأحد .. ستكون ملكا لأهل الكفر كلهم .. ستكون مدرسـة كفـر مفتاح الإعدادية الثانوية .. سأتبرع بفدان من أرضـي الزراعيـة .. وسأقوم ببناء المبني وأسلمه إلي وزارة التربية والتعليم .. وإن شـاء الله سأبذل أقصي ما في وسعي ليكون جاهزا في أول العام الدراسـي القادم و........))

وقاطع أهل الكفر جميعهم العمدة الحـاج أيـوب بـالتصفيق والهتاف له بشكل عفوي وتلقائي .. فـي ومضـة حـب أضـاءت صدورهم وقلوبهم جميعا راحوا يكيلون الشكر والدعاء له بالصحـة وطول العمر .. لكن ارتفع صوت الشيخ مأمون من بينهم بعد أن هب واقفا مشيرا لهم في الحاح بالتوقف للحظات .. ومـا أن اضمحلـت الأصوات وتهافتت حتى قال مأمون مسيطرا عليه شـعور جـارف

بالامتنان للعمدة وفي اللحظة نفسها مستنكراً سلبية أهل الكفر: ((بالطبع مهما حاولت أن أعبر عن عظيم شكري بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن إخواني المدرسين وأبنائي الطلبة لعمي الحاج أيوب عمدة الكفر .. فلن أستطيع .. لكن كل ما أستطيع أن أقوله له بإخلاص شديد أن ثوابه وأجره العظيم عند الله يفوق آلاف بل ملايين المرات تلك الكلمات الشاكرة التي تتصاعد من أعماقنا بصدق .. لكن في اللحظة نفسها.. يجب أن ينتبه أهل الكفر جميعاً إلي أن الناس بخير ما تعاونوا .. وأنهم من العار عليهم أن يظلوا هكذا يسبحون كالغرقى في سلبيتهم .. فنحن نشكر العمدة لتبرعه بأرض المدرسة .. لكن كيف نتركه يتحمل عبء بنائها وحده؟! .. لماذا لا يشترك أهل الكفر جميعهم صغيرهم وكبيرهم في بناء مدرستهم؟! .. مدرسة كفو مفتاح .. كل حسب مقدرته .. بالمال .. بالعمل .. بأي شئ .. يجب أن يشعر كل واحد منا أنه قد وضع حجرا أو حفنة رمل في جدرانها و..))

وقاطعة الناس بالتأييد والهتاف بالموافقة، وقال أحدهم لجاره بإخلاص: ((هذا هو أفضل كلام سمعته من الشيخ مأمون اليوم))

وإذا كان الجميع قد وافقوا على اقتراح مأمون بالتعاون في بناء المدرسة فوق الأرض التي تبرع بها العمدة .. إلا أنه لم يرحب بالحل الذي طرحه أحد أبناء الكفر الذي يعمل صحفيا في القاهرة وجاء هذا العام لكي يحضر الأسبوع الأول من رمضان في الكفر مع أسرته .. فلقد قال بحل وسط يجمع بين الناس علي مائدة الإفطار الجماعي في الدوار .. فما دام (التليفزيون) وبرامجه هي من العوائق الخطيرة لعودة الناس إلي سابق عهدهم الجميل والاجتماع على مائدة رمضانية واحدة .. فما المانع أن نحضر (التليفزيون) الملون إلي الدوار .. ونترك الفرصة لمن يحب متابعة البرامج أن يتابعها بعد الإفطار .. وبالرغم من أن هذه الفكرة قد لاقت استحسان الجميع تقريبا .. إلا أن الشيخ مأمون لم يسلم بها تماما .. اعتقادا منه – وكما

أوضح لهم – أن ذلك قد تكون فرصة لانتشار الفساد لدي غير المتابعين (للتلفزيون) من قبل .. وبدلاً من علاج المشكلة نخلق بأنفسنا مشكلة جديدة .. لكن مع ذلك أعلن بأنه لن يستطيع أن يخرج عن رأي الجماعة في إحضار (التليفزيون) إلي الدوار، وإن كان هو نفسه لن يسمح لنفسه بمتابعة (التليفزيون) أبداً .. إلا فقط في البرامج الدينية .. وقبل أن يعلن الأستاذ جمال عن تبرعه (بالتليفزيون) الملون طوال شهر رمضان لمشاهدته في الدوار .. نهض الحاج عبد العزيز السندسي .. وهو أحد شباب الكفر من الفلاحين الذين تمردوا على فلاحة الأرض، وهجرها إلي أعمال المعمار، وتعلم مهنة نجار مسلح .. وبعد أن تغيب عن الكفر لمدة أربع سنوات قضاها في السعودية عاد منذ شهرين .. تزوج في بيته الجديد الذي تعهد ببنائه والده في غيابه .. وعاد مرتدياً الجلباب السعودي الأبيض .. وأصبح الناس يطلقون عليه الحاج عبد العزيز .. نهض وسط الجميع مستعطفاً لهم متوسلاً إلي جمال: ((أرجوكم .. اسمحوا لي بأن أشترك معكم في هذا الفرح برمضان الكريم .. سأتعهد بإحضار (التليفزيون) الملون إلى الدوار))

أراد جمال أن يرد رجاء الحاج عبدالعزيز، ويصر على أن يحضر هو (التليفزيون).. لكنه قرأ في عيني الحاج عبد العزيز معان كثيرة .. كان يرجوه من أعماقه ألا يكسر بخاطره أمام أهل الكفر .. كان يطلب منه بشدة أن يرفع من قامته في حضور أقرانه من أهل الكفر، وخاصة الذين تعلموا وحصلوا على شهادات .. بينما حالت ظروفه المادية الصعبة أن ذاك دون أن يكمل تعليمه .. كان يقول له بصراحة عينيه ونظراتهما، أن المال صار معه، ولا ينقصه إلا أن يشعر أهل الكفر بقيمته وأهميته .. قرأ جمال كل هذا بنظرة خاطفة .. فلم يشأ أن يخيب أمله .. فابتسم له مشجعاً وحتى يكون مثالاً لغيره من أبناء الكفر الذي تصادف حضور معظمهم من الخارج مع عطلة الصيف، وحلول شهر رمضان وخاطبه بنبرة تنضح بالحب والتقدير:
((بارك الله فيك يا حاج عبد العزيز، وأكثر الله من أمثالك.))

يبدو أن كلمات التشجيع هذه قد فتحت شـــهية الحـــاج عبـــد العزيز لتقدير الناس له، فقال ببهجة وسعادة وإصرار: ((وأرجو أيضاً أن تقبلوا مني مبلغ ألف جنيه تبرعاً مني لبناء المدرسة الجديدة))

ولم يملك جمال في غمره تقديره له غير أن يصفق له أمـــــام الجميع محيياً، وكذا فعل كل الحضور، ووجدها جمال فرصة ســـانحة لم يشأ أن يبددها فخاطب الشيخ مأمون قائلاً في مداعبة: ((ما دمـــت أنت صاحب فكرة التعاون في بناء المدرسة .. لذا فنحن جميعاً نثـــق بك في جمع مبالغ التبرعات من أهل الكفر .. ونشكل لجنة معك بهذا الخصوص .. وأرجو أن تقيد أمام اسمي مبلغ ألفي جنيه))

وضج المسجد بالتصفيق من جديد للأستاذ الذي استحال إلـــي رجل خجول تتناثر على جبينه الساطع حبات العرق.

وكأن ما تبرع به كل من الحاج عبدالعزيز السندسي والأستاذ جمال صفي الدين من مبالغ نقدية كان بمثابة القطر الذي يسبق الغيث .. إذ سرعان ما نهض واحد بعد آخر ليعلن عن المبلغ الذي ســيتبرع به للمدرسة الجديدة .. وبين التصفيق والهتاف أحضر مـــأمون فـــي الحال قلماً وورقة، وشرع يمارس واجبه المكلف به من الأستاذ جمال برضاء أهل الكفر، وأخذ يسجل الأسماء والمبالغ قرين كل متبرع..

نهض المهندس منصور السيد، وقد سيطر عليه شـــيء مـــن الخجل والأسف؛ ليعلن أمام الجميع: ((بما أنني لا أملك مــــالاً كـــي أتبرع به للمدرسة الجديدة .. لذا سيشرفني أن أتولي أنـــا الإشـــراف علي بناء المدرسة ، ابتداءً من تأسيسها؛ حتـــى لا تتكـــرر مأســـاة مدرسة سعد التي استخدم في بنائها خامات مغشوشة .. كـــان يغـــش نفسه .. لكن مدرسة الكفر لابد أن يتفرغ لها أولاد الكفر وأنا أولهم .. سأضع كل علمي الطازج وخبرتي تحت تصرف مشروع المدرســـة

حتى تقف شامخة، وتفتح ذراعيها بحب لكي تستقبل إخواننا في بداية العام الدراسي القادم إن شاء الله)).

في هذه المرة كان تصفيق جمال حادا وملتهبا؛ تقديرا لواحد من تلاميذه النجباء، وتبعه الحضور في تحية المهندس الشاب..

صار واضحا أن المسجد تحول إلي ساحة تفاؤل وسعادة .. كانت الألفة ترفرف بأجنحتها الخضراء الندية في كل الأرجاء وتنثر معها روحا جديدة بين الجميع، وطفقت تدب في عروقهم دفقات بعد دفقات من الود والتقارب. في لحظات شعر كل واحد منهم بأنه لم يعد غريبا أو بعيدا عن أي إنسان آخر في الكفر. كبار السن انتابتهم قشعريرة لذة العودة للماضي المفتقد .. أحسوا بأن أيام زمان قد عادت إليهم من جديد .. مرة أخري سيعايشون أحاسيس ومشاعر ظنوها قد ولت مع أيام هربت ولن تعود مرة أخري، تذكروا شبابهم عندما كانوا يجتمعون حول مائدة رمضان في الدوار، يوم أن كان أي منهم يخاطب جاره بود وهو يجتمع مع أولاده حول الطبلية سائلا له عن نوع الطعام الذي يتناوله، فإذا ما كان من نوع الطعام الذي يحبه طلب منه أن يغرف له بعضا منه .. ويسارع الآخر بالاستجابة ببهجة ورضا .. كانوا يتبادلون الطعام على الإفطار وهم سعداء .. لم يكن أي واحد منهم يفكر في أن يغلق عليه بابه .. كانوا جميعا فقراء لكنهم كانوا سعداء .. ووخزهم توجس ضعيف فتساءلوا ((هل حقا ستعود تلك الأيام الهاربة؟.. وإلي متي ستستمر في الكفر؟!! – هل ستقتصر على أيام شهر رمضان فقط ؟ أم ستتغلب على روح الجشع فينا وتعيش معنا إلي الأبد؟!!)) .

فجأة .. استيقظت ديناصورات الحقد والغضب في صـــدر الحاج سعد أبو رزق عندما سرد له خليل أبو علي الذي يعمـــل فـــي مصنع الطوب الأحمر، الذي يملكه الحاج سعد والموجود فـــي كفـــر مفتاح، فلقد كان سعد يتعامل مع هذا العامل بالذات على أنـــه العيـــن السرية التي يتابع بها كل ما يخصه أثناء غيابه عن الكفر .. وكـــان يشدد عليه دائما بضرورة إبلاغه أولاً بأول عما يقع في الكفر .. وما أن سمع وشاهد كل ما وقع في المسجد عقب صلاة الجمعة لهذا اليوم حتى عاد إلي بيته، وارتدى جلبابه النظيف والبلغة التي لا يلبسها فـــي قدميه إلي عند نيته الذهاب إلي خارج الكفر .. وخاصة إلـــي مدينـــة فاقوس

قص كل ما سمعه على أذني الحاج سعد، الذي كان يريح كل جسده فوق دكته الخشبية التي وضعها هو الآخـــر ملاصقـــة لبـــاب مستودع مواد البناء في وجه الطريق؛ لمتابعة المارة، وكأن عـــدوى صديقه الحاج صالح قد انتقلت إليه وصار مدمنـــاً لمراقبـــة النســـاء العابرات من أمامه، لكنه في هذه اللحظات لم تكن عيناه متابعتين لأية امرأة مهما كان جمالها؛ فالمصيبة التي حملها له خليل أبو علي كانت فوق توقعه واحتماله، جعلته يشعر بأن أيام الراحة التي اجتاحته منـــذ أن ترك الكفر للعمدة وجمال، وزوجته أم سعدية وبناته ولكل الحاقدين عليه قد آذنت بالرحيل، بدأ يحس بأن رياح شر وصراع ساخن أخذت تهب عليه من تحت عقب الباب الذي سده واستراح منذ فترة طويلـــة .. منذ أن تزوج جمال صفي الدين نسمة ابنه العمـــدة .. ومنـــذ أن تزوج زوجته الجديدة وأقام معها نهائياً في فاقوس، تكزز متفتقاً مـــن الغيظ وهو يستمع من رجله كيف أن الكفر كله يتآمر عليـــه وعلـــى رزقه .. كيف أنهم جميعاً وعلى رأسهم عمدة الكفر الذي تبرع بفدان أرض من أجل بناء مدرسة جديدة بدلاً من مدرسة سعد الإعداديـــة ..

همس لنفسه بتأجج: ((هل عاودت إعلان الحرب عليَّ وعلى رزقـــي ياحاج أيوب .. هل غرك وجود جمال بجوارك وكل أهل الكفــر ؟ .. تتظاهر بأنك تتبرع بفدان أرض ثمنه لا يقل عن خمسة وعشرين ألف جنيه مدعياً بأن هذا لصالح الكفر وأهله .. لإنقاذ أرواح أولاد الكفــر من الموت تحت أنقاض مدرستي الآيلة للسقوط .. بينما الحقيقــــة لا يعرفها أحد غيري .. ليس لله ما تفعله .. لكنه للكيد لي أنا، من قبــل حاولت محاربتي حتى لا ابني مصنع الطوب الأحمر .. وانتصــرت عليك .. وبنيت المصنع .. وها هي مدخنته تخترق عينيك في كـــل صباح ومساء .. لكن لا يهم .. فكما انتصرت عليك من قبل .. فلــن أنهزم أمامك وأمام أهل الكفر الحقدة .. سأنتصر عليكــم جميعــا .. وسيعلم أهل الكفر من جديد وعلى رأسهم العمدة وزوج ابنته جمـــال حبيب الشعب من هو الحاج سعد .. ومن عفر عفـــاراً ســقط علـــى رأسه)).

واستدار في الحال إلي خليل الذي لم يزل جالســاً بجــواره باستكانة وأدب متظاهراً بالحزن لما ينتويه أهل الكفر لمدرسه الحــاج سعد، وسأله بصوت خفيض: ((أتعرف المبلــغ الــذي جمــع لبنــاء المدرسة الجديدة حتى الآن؟))

أجابه خليل دون إبطاء: ((أعتقد أنه وصل في المسجد إلــــي حوالي عشرة آلاف جنيه يا عمي الحاج سعد .. هــز ســعد رأســه وهرش بسبابته أسفل ذقنه وعلق ساخراً: ((ويريدون بنـــاء مدرســة إعدادية ثانوية بعشرة آلاف جنيه أو حتى بمائه ألف جنيه ؟!!)).

لم يجب خليل عن السؤال الساخر وكأنه لم يسمعه .. وواصل سعد مستفسراً من خليل: ((ألا توجد لديك أخبار جديدة عن الكفــر .. عن البنات وأمهم ؟))

شهق خليل شهقة ندم عندما لطمه سؤال سعد منبهاً ذاكرتـــه التي كانت على وشك أن تنسي الخبر الذي شاع في الكفر عن هروب الدكتور أنور زوج ابنته سعدية من الكفر .. وتخليه عـــن الإشـــراف على مزرعة الدواجن بعد أن فرغها من العلف اللازم .. وكيـــف أن سيارات نقل من المنصورة قد جاءت إلي الكفر محملة بعلف الدواجن للمزرعة .. وأخبره أيضاً أن هناك مهندساً زراعياً من المنصورة هو الذي يتولى الإشراف على دواجن المزرعة حالياً، بعـــد أن اختفـــى الدكتور أنور .. وهناك كلام يقال بين أهل الكفر أن الأستاذ جمال هو الذي تدخل في الوقت المناسب وأحضر هؤلاء الناس من المنصـــورة بعد أن لجأت إليه الحاجة سعدية و...

قاطعة الحاج سعد بغضب أشد وقال ناهراً إياه: ((ولماذا لـــم تخبرني في حينه ياحمار؟!!))

أجاب خليل مضطرباً : ((لم أسمع بهذا إلا في صباح اليـــوم وبالضبط قبل صلاة الجمعة .. فكرت أن آتيك بعد صلاة الجمعـــة .. وكانت فرصة حلوة لأني حضرت المؤامرة عليك ياعمي الحاج -ربنا يطول لنا في عمرك-)).

لم يجبه سعد .. انصرف عنه تماماً .. كأنه غـــير موجـــود بجواره .. أخذ يضرب كفاً بكف .. أحس خليل بأن الغضب قد صهر الحاج سعد، وحوله إلي كتله من اللهيب والدخـــان الأســـود .. لقـــد استحالت بشرته إلي السواد نفسه ودخان السيجارة كان يخرج من بين شفتيه وفتحتي أنفه متواصلاً مختلطاً بالنيران .. مما جعل يفكر فـــي النهوض والعودة مرة ثانية إلي الكفر؛ قبل أن يتحول إليه الحاج سعد بجنونه ورعونته وقد يؤذيه .. فهو يعرفه جيداً ويعرف غضبه وعدم قدرته على السيطرة على الشر في نفسه .. فكيف به وقد أسمعه لتوه ما زلزل كيانه وفجر كل براكينه .. لكنه سمع ســـعداً يكلـــم نفســـه باحتراق: ((بنت الكلب سعدية .. حذرتها ألف مـــرة مـــن الدكتـــور

زوجها .. لكنها لم تعد تسمع كلامي .. عندما أصرت على طلب وصل الأمانة المأخوذ عليه حذرتها من عدم إعطائه له .. لكنها .. يبدو أنه ضحك عليها واستغفلها وأخذه منها وهرب .. لكن هذا النذل يضع البنت ودجاجها في هذه المحنة ويهرب .. يريد أن يقضي عليها وعلى أموالها؟!! .. ابن الكلب الرمة .. لكن لماذا لم تلجأ إليَّ سعدية .. فضلت اللجوء إلي جمال؟!! .. إذن صار ذهابي إلي الكفر ضرورياً .. لا يمكن أن أترك حالي ومالي يبدد أمام عيني وأنا جالس هنا .. لكن الليلة لا يمكن الذهاب إلي الكفر .. يجب أن أتسحر مع نوال .. إن هذه أول سحوره أقضيها معها.. وهي جهزت كل شئ)).

وبعد أن فكر هنيهة رفع رأسه متوجهاً إلي خليل بسؤال مفاجئ : ((ألم تقل أن جمال قد دعي الكفر كله إلي الإفطار؟.. وطلب من الحاضر أن يعلم الغائب؟!!))

أجاب خليل باستغراب للنبرة التي يسأل بها الحاج سعد، وكذلك للموضوع الذي يتناوله السؤال: ((نعم يا عمي الحاج..هو قال ذلك أمام الجميع))

خاطبه سعد بمرح مفاجئ: ((وأنت كنت حاضراً.. ولقد أعلمتني لأني كنت غائباً)).. وانفجر سعد فجأة في ضحك هستيري .. مما أرعب خليل أبو على، وجعله ينكمش في جلسته مزوراً بعيداً عن وجه سعد، الذي طفح بالسعار والبشاعة.. وأراد أن يكبح هذه العوارض الجنونية التي سيطرت على سعد؛ فصرخ فيه من بين الخوف والاستفسار: ((ماذا تعني بهذا القول يا عمي الحاج؟!!))

خفف سعد من إفراطه في الضحك المصطنع، وهدأ من نفسه في الحال، وأوضح لخليل الذي أدرك أن الرعب قد تملكه تماماً: ((لا تخش شيئاً ياحمار.. كل ما في الأمر أنني سأحضر مع أهل الكفر أول إفطار في شهر رمضان..))

قاطعة خليل متعجبا ومستنكرا: ((فـــي دوار الحـــاج أيـــوب العمدة؟!!))

عاد سعد إلي ابتسامته الخبيثة من جديـــد، وقـــال متصنعـــا الدهشة لسؤال خليل: ((ماذا دهاك ياجحش؟!!..ألست أنا واحدا مـــن أهل الكفر؟..أليس الحاج أيوب هو عمدتنا؟!!))

قاطعه خليل مستدركا في استنكار: ((لكنك يا عمـــي الحـــاج لست على وفاق معه..كل الناس تعرف هذا..وهو يعرف هذا و..))

قاطعه سعد بحدة ومسفها لكلامه: ((اسكت يا أبله.. مهما كان بيننا من خلاف.. فلم نزل أولاد قرية واحدة .. ثم إن مصر تصالحت مع إسرائيل بعد الحروب والدماء..ألا تريدني أن أصالح العمدة..وهل هناك مناسبة أفضل للصلح من حلول شـــهر رمضـــان الكريـــم يـــا مغفل؟!!)).

لم يعلق خليل وسط دهشته.. ظل صامتا يمط شفته السفلي في الهواء غير مصدق..ثم يعاود ليمعن النظر في وجه الحاج سعد فـــي محاولة مستميتة لقراءة كل ما يدور في أعماق الحاج ســـعد .. فـــهو يعرف جيدا أن هذا الذي يقول به الحاج ســـعد لا يمكـــن أن يكـــون السبب الحقيقي .. لكن بالتأكيد هناك لعبـــة كبـــيرة، وخطـــة خبيثـــة وخطيرة يخطط لها الحاج سعد..والذي يجعله علي يقين مـــن هـــذا التخمين .. تلك الحالة بل الحالات النفسية التي اخترقها الحاج ســـعد في الحال والتو بكل كيانه ووجهه الذي تشكل أمامه، وفي هذه الجلسة إلي مائه وجه ووجه بتعبيرات شيطانية تفح برائحة الانتقام والحقد .. فلا يمكن أن يتحول في لحظة وبقدرة قادر إلي بحر مـــن التســـامح واللين والطيبة .. فهذه المعاني تتناقض وطباع سعد الأقـــرع التـــي يعرفها .. وتسرب إليه في اللحظة نفسها إحساس بالخوف علي الكفر من شر الحاج سعد .. فهو ليس غريبا عن الكفر .. كما أنه يعـــرف

جيدا تاريخ الحاج سعد منذ أن كان أجيرا وخادما للماشية عند حضرة العمدة .. ويعرف تاريخ تمرد سعد على كل جميل وطيب في الكفر .. ويعرف عنه أنه لا يحب إلا مصلحته هو فقط .. لكنها لقمة العيش المرة التي ربطته بسعد منذ أن جعله يعمل معه في مصنع الطوب الأحمر منذ إنشائه .. لكنه مع ذلك لم ينس أن أولاده يتعلمون في مدرسة سعد الإعدادية الآيلة للسقوط .. وأن العمدة وأهل الكفر لم يفكروا في بناء مدرسة جديدة إلا حفاظا على أرواح أبنائه وأبناء الكفر .. فماذا ينوي سعد بتصرفه المفاجئ هذا .. ماذا يدبر بالضبط للكفر وأهله .. حاول خليل أن يتوغل بقدر استطاعته عبر عيني سعد إلي ما يدور تحت عظام جمجمته .. لكن يبدو أنه ارتد خائبا عاجزا عن استنباط أي توقع أو فكرة محددة لما يضمره سعد في أعماقه من شر..هو متأكد تماما من أنه قد اختزن كمية هائلة من الشر في أعماقه تجاه الكفر وأهله..لكن ماهيته ونوعه يتستر عليهما سعد تماما..

وفكر في أن يستدرج سعد، ويتسلل إلى كل ما يخبئه في أعماق نفسه، أو حتى إلي بعض منه بسؤال مفاجئ: ((وهل ستتركهم يتآمرون عليك يا عمي الحاج، ويبنون مدرسة جديدة؛ حتى يحرموك من الاستفادة بإيجار مدرستك؟!!))

ابتسم له سعد في ثقة وراح يجرده من ثوب الخبث والبراءة التي يدعيها وقال له كأنه يبلغه رسالة إلي أهل الكفر: ((ما دمت على قيد الحياة .. فلن تكون هناك مدرسة إعدادية في الكفر غير مدرسة سعد رزق الإعدادية المشتركة))

هز خليل رأسه بالموافقة والتأييد: ((تمام يا عمي الحاج))

ولم يكن سعد بحاجة إلي سماع أي تأييد منه، ولذلك قاطعه مستفسرا باهتمام: ((بكم جنيه تبرع جمال المحامي لبناء المدرسة؟))

رد عليه خليل بفخر وسعادة خانته وخرجت في صوته: ((تبرع بألفي جنيه يا عمي الحاج. ابتسم الحاج سعد لنفسه وهتف مؤكدا: ((سأتبرع لمدرسة بلدي بضعف ما تبرع به..أنا ابن الكفر..هو غريب عنا..أنا أحق بالتبرع لمدرسة بناتي منه هو..سأتبرع بأربعة آلاف جنيه..))

لم يصدق خليل، فشهق من جديد شهقة تشبه شهقة خروج الروح من الجسد، ولحقها بسؤال: ((هل يعقل أن تفعل ذلك وأنت الخاسر من بناء هذه المدرسة الجديدة؟!!))

تضايق الحاج سعد من الطريقة التي وجه بها خليل سؤاله .. فمد يده على قدر استطاعته ولكزه في أعلي كتفه موبخا له: ((ماذا تقول ياحمار..هل نسيت أني الحاج سعد ومن أغني أغنياء كفر مفتاح؟!!))

تيقن خليل تماما أنه لن يتمكن من الوصول إلي أعماق سعد ليستخرج ما بها .. بل وجد نفسه – وكلما طالت جلسته معه – يغرق أكثر وأكثر في بحور خبثه وغموضه .. لذلك فضل أن ينهض في الحال مستأذنا في الرحيل والعودة إلي كفر مفتاح .. حتى يلحق بسيارة تنقله إلي بيته قبل أن تخف السيارات ويحرم هو من تناول أول سحوره مع زوجته وأولاده في الكفر..

سلم على الحاج سعد الذي شدد عليه في دعوته إلى تناول طعام السحور معه في بيته الجديد، وبعد أن رفض خليل الاستجابة للدعوة .. عاد سعد وشدد عليه بعدم البوح بسر زيارته إلي الكفر غدا مع أهل الكفر في الدوار – لكي يحيى مجد العمدة القديم .. وكذلك عدم التصريح لأحد بأنه سيتبرع في الغد بأربعة آلاف جنيه .. وبعد أن أقسم خليل له بأغلظ الإيمان بأنه سيكون أمينا على كل أسراره ..

انسل من بين يديه مهرولا إلي موقف السيارات الأجرة التـــي تمــر بكفر مفتاح.

الفصل الثالث عشر

في تلك اللحظات الروحية التي تسبق آذان مغرب رمضان المبارك .. وبينما كانت أسماع وقلوب أهل الكفر تتجاوب مع الآيات القرآنية الكريمة، التي تشرق عليهم من شاشة التليفزيون الملون، الذي أحضره الحاج عبد العزيز السندسي كما وعد إلي دوار الكفر .. كان الإحساس الأخوي الدافئ ينتشر ويتداح في أرجاء المكان .. كانت الابتسامة وحدها هي التي تجاوب الابتسامة الأخرى بين الحضور .. كان الأطفال الذين أصروا على اللحاق بآبائهم والجلوس معهم في الدوار هم أكثر هؤلاء الحضور انبهاراً وبهجة بهذا التجمع وتلك القدسية التي كللت جبين جميع الحاضرين .. وبين لحظة وأخري كان يرتفع صوت واحد من بينهم –بسعادة– يهنئ جميع الحاضرين بمقدم الشهر الكريم .. داعياً لهم بدوام الألفة والمحبة والخير على أهل الكفر جميعاً .. ويرد عليه الجميع بكل إخلاصهم وإصرارهم على استمرار هذا التجمع الرمضاني، مرسلين النظرات الشاكرة المفعمة بالحب والود إلي كل من الأستاذ جمال وحضرة العمدة لدعوتهم إلي هذا الإفطار الجماعي ..

وبينما كانت وجوه كل الحضور تنضح بأحاسيس الرضا والأمان والسعادة.. إذ بمشاعرهم وسحناتهم تتقلب فجأة، وكأن الشياطين التي قيدتْ في رمضان، قد فكت قيودها وهجمت عليهم،عندما اقتحم سعد الأقرع عليهم اجتماعهم .. واستعاذ بعضهم بشكل تلقائي بالله من الشيطان الرجيم .. وهمس كل منهم إلي جاره بقلق وضيق: ((لماذا يحضر هذا الشيطان هنا؟!! ألم تقيد كل الشياطين))

أما سعد نفسه فلم يلق بالاً إلي تلك الوجوه التي تحولت نضارتها إلي ذبول وتجهم .. لكنه قرر أن يقتحمهم جميعاً –ورغم

أنوفهم- بصوته الجهوري المشروخ، كاشفاً عن أسنانه التي لم تـــزل كبيرة وصفراء لاصقاً على شفتيه ابتسامة خرسانية جامدة .. توجـــه في الحال إلي الأستاذ جمال، الذي نهض من فوره مرحباً به متظاهراً بالسعادة لمجيئه وحضوره مثل بقية أهل الكفر .. لكن العمدة قطـــب جبينه، وبدا عليه عدم الترحيب به وبمجيئه .. إلاّ أنه تذكر أنه فـــي شهر رمضان .. شهر التسامح والغفران .. وأن سعداً جـــاء حتـــى دواره .. كأنه جاء إليه بيته .. وبالرغم من المصائب والمشاكل التـــي سببها للعمدة .. إلا أن العمدة أضطر إلي النهوض لكي يصافح سـعداً الذي مد يده إليه طالبـــاً السـماح والعفـو بمناسـبة هـذا الشـــهر الفضيل..أقشعر بدن العمدة عندما فوجئ بسعد يـــهجم علـــى جســده محتضناً له ومقبلاً له في وجهه وفوق رأسه، في حضور الجميـــع .. وكذلك زاد سخط الناس، وخاصة الذين يعرفون سعداً علـــى حقيقتـــه وتعاملوا معه..وكذلك يعرفون النزاعات التي وقعـــت بيـــن العمـــدة وسعد، والتي اختلقها سعد نفسه جاعلاً من نفسه نداً للعمدة .. وخاصة أن سعداً قد أفضى إلي البعض بأنه يجهز نفسه لكي ينتزع العمديـــة من الحاج أيوب .. في الحقيقة كانت مفاجأة للجميع أن يحضر ســعد .. لذا اختفى مع مقدمه إحساس الحب الدافئ الذي كان يغمرهم منـــذ لحظات .. البعض توجس شراً من اقتحامه هذا .. الوحيد الـــذي لـــم يفاجأ به وبحلوله بينهم هو الأستاذ جمال صفي الدين .. فلقـــد علـــم بالأمس .. أن الحاج سعد ينوي أن يحضر طعام الإفطـــار غـداً .. وكذلك ينوي التبرع للمدرسة الجديدة بمبلـــغ أربعـــة آلاف جنيـــه .. ضعف المبلغ الذي تبرع به جمال .. فقد أفضى العامل خليل أبو علـــي إلي الأستاذ جمال بمجرد عودته خائفاً بعد مقابلة سعد فـــي فـــاقوس، وبعد أن رأي من جنونه وحقده ما رأى .. أفضى إليه بمخاوفه مـــن نية الشر التي يبيتها سعد في نفسه للمدرسة الجديدة .. وتوسل إلـــي الأستاذ أن يلزم جانب الحذر الشديد من هذا الرجل، الذي لا يعـــرف على وجه التحديد ماذا يدبر للكفر وأهله .. كما توسل لجمال أيضـــاً بأن يحفظ سره، ولا يفضي به إلي أي مخلوق آخر .. حتى ولو كـــان حضرة العمدة صهره .. حتى لا يقطع الحاج سعد عيشه .. وأوضـــح

له أن ضميره لم يطاوعه في الذهاب إلي بيته قبل التحدث إليه بكل ما سمعه وشاهده من سعد أبي رزق .. لذا كان جمال يعد نفســـه جيـدا لهذا اللقاء .. وهمس إلي الشيخ مأمون في صلاة العصر بضـــرورة إحضار كشف التبرعات معه عندما يأتي إلى الدوار مغرب هذا اليوم؛ فقد يفكر البعض في التبرع للمدرسة..

بعد أن تناول الجميع طعام الإفطار، وذهبوا إلـــي المســجد لصلاة المغرب .. أعلن سعد على الملأ أن السعادة غمرتـــه تمامـــا عندما علم بمشروع المدرسة الثانوية الجديدة في الكفر .. ولذا فـــهو يتبرع عن نفسه وعن بناته بمبلغ أربعة آلاف جنيـــه .. وقـــع هــذا الإعلان على آذان الناس مواقع شتى .. بعضهم فرح بالمبلغ وشـــكر الحاج سعد .. ولكن البعض الآخر لم يرتح لهذا التبرع .. ومن بينهم العمدة والشيخ مأمون الذي كان علي وشك أن يرفض استلام المبلـــغ منه عندما قدمه له سعد أمام الجميع، لولا أن الأستاذ أومأ له برأســـه ليتسلم المبلغ من الحاج .. فتسلمه عن كراهية منه .. فـــهو يكرهـــه كراهية الأرض للدم .. فهو يعرف عن ضميره الميت الكثير والكثـير .. ويكفيه تلك الرشوة التي يدفعها للمختصين لكتابه التقارير الكاذبـــة .. والتي سيترتب عليها أن تتهدم جدران المدرسة الخرســـانية فـوق رؤوسهم من أجل جنيهات معدودات .. انتبه بعضهم إلي ادعاء ســعد بأن المدرسة التي ستبني هي مدرسة ثانوية للكفر .. وكأنه لا يعلم أن المدرسة التي ستبنى ستكون إعدادية ثانوية .. وستكون بديلـــة عــن مدرسته هو .. فكر الشيخ مأمون أن يبرز هذه النقطة لســـعد وفـــي حضور الجميع، لكنه اعتقد أن هذا الكلام قد يطور الأمر وينتهي إلى نزاع أو شجار في أول ليلة من ليال شهر رمضان .. ففضل الصمت على مضض، وقرر أن يكمل السهرة مع الجميـــع بســـلام .. بينمـــا اعتذر الحاج سعد مقهقها بأنه كان يتمني أن يطيل معهم الجلـــوس .. لكنه سيضطر إلي العودة إلي فاقوس الليلة مباشرة بعـــد أداء صـــلاة العشاء لأنه ترك زوجته الجديدة في فاقوس بمفردها، وهي حامل فـــي شهرها الأخير، وأن مسئوليته صارت مضاعفة .. قال هذا علي سبيل

الدعابة والضحك .. لكن ضايقه أن أحدا لم يضحك، لذا وجد نفسه يتكلم إليهم من جديد بشكل جاد ومنقبض، وقال مذكرا لهم وخاصة الأستاذ جمال والعمدة: ((أنتم تعرفون أنني مقاول ولدي كل الاستعدادات والمواد اللازمة لبناء المدرسة الجديدة .. وطبعا أنا ابن البلد وأولى من الغريب .. وسيكون سعري أقل بكثير من المقاول الغريب.))

بعد أن قال سعد الكلام السابق في حضور الجميع .. صارت لدى غالبية الحضور قناعة بأن سعدا لم يتبرع بهذا المبلغ الكبير لوجه الله .. لكنه يمهد لكي يحصل علي عقد بناء المدرسة الجديدة .. وأنه بالتأكيد حسبها بهذه الطريقة. يدفع بيده اليمنى أربعة آلاف جنيها .. لكي يأخذها بعد ذلك بيده اليسرى أربعين ألفا؛ لذلك انقلب معظم الحامدين له تبرعه إلي ناقمين على نيته السوداء، لكن الأستاذ جمال صفي الدين، لم يسلم بهذا التفكير والاستنتاج السهل .. فجمال عايش سعدا وفهمه أكثر من نفسه .. ولم يقتنع أبدا بأن توعد وقسم سعد بعدم بناء مدرسة جديدة –طالما هو علي قيد الحياة– يمكن أن يغطيه قوله العارض لتولي أعمال الإنشاء والبناء للمدرسة..

وحملت جمال الذكرى إلي قسم يشبه نفس هذا القسم منذ سنوات .. عندما جمعته الظروف به بعد أن هجر الكفر، وكان يجلس معه علي باب مستودعه، حينما قال ضاحكا شامتا أن نسمة لن تتزوج أبدا طالما بقي سعد على قيد الحياة .. يومها عرف من سعد ما كان يمتلئ به من انحطاط وخسة وانعدام ضمير .. وصلت به إلي تلويث الأعراض الشريفة ((هو هو سعد لم يتغير ولن يتغير!!))

هكذا قال جمال مذكرا نفسه بالإشاعة التي أطلقها في الكفر بأن العمدة طرده وأمه .. علي أي حال كان جمال قد وصل إلي قرار نهائي يستطيع أن يقنع به أي إنسان في الكفر، وهو أن سعدا لن

يتولى أبدا بناء المدرسة الجديدة .. حتى ولو عرض خدماته عليهم بالمجان.

ودون أن يقنع جمال أحدا، كان معظم أهل الكفر غير مقتنعين أبدا بأن يتولى بناء المدرسة الجديدة .. فلقد صار كل واحد منهم يعتبرها بحق مدرسته هو .. تخصه هو في المقام الأول .. ولا يمكن أن يفرط فيها ويعطيها إلي سعد: ((فمنذ متى صار يفهم في المقاولات؟!..الله يرحم أيام زمان..منذ سنوات قريبة عندما كان يجري خلف حمارين يحملان السباخ في طرقات القرية!!.. كيف نأتمنه على أموالنا وعلى مدرسة أولادنا؟!؟))).

وهذا الرأي نفسه قاله الشيخ مأمون، وكذلك المهندس منصور السيد صراحة إلي الأستاذ جمال في بداية السهرة في الدوار وبعد أن انتهوا من صلاة العشاء والتراويح في المسجد .. وفي الحال ودون مناقشة .. أقرهم جمال علي رأيهما .. وأنه يعي جدا هذا الأمر .. لكن لا يجب أن ننسي بأن أي جنيه يأتي منه تبرع هو مكسب للكفر منه .. بل هو دين عليه وواجب دفعه للكفر .. ولأول مرة يفيض جمال ويصرح بتوجسه الشر من ناحية سعد هذا وطالبهما أن ينتبها جيدا إليه .. كما شدد عليهما أن يتوسعا في توعية الأهل من هذه الناحية .. وأنه من المتوقع جدا أن يضع سعد الكثير من العقبات في طريق مشروع المدرسة بشكل أو بآخر .. وأوضح لهما أيضا أن تفكير سعد ليس سطحيا: ((ثم إنه عدواني بطبعه.. لذا سيعتبر أن أهل الكفر كلهم يقفون ضده .. وأننا نفعل هذا لكي نحرمه من الإيجار الذي يتقاضاه من التربية والتعليم عن مدرسته .. لذا وجب علي أن أحذركم منه .. لأنكم في النهاية أنتم الذين ستتحملون عبء إنجاز مشروع المدرسة فأنا أزور الكفر فقط كل أسبوع..))

أخذت الحمية والحرارة الشيخ مأمون وهتف مهددا: ((من سعد هذا الذي يمكنه أن يتحدى إرادة الكفر كله؟!!..والله لو اقتضى

الأمر لمنعناه من دخول هذا الكفر بالقوة .. قاطعة جمال منبها بضرورة أن يخفض صوته .. كما أنه يجب علينا أن نحسن الظن في الناس، ولكن المؤمن يجب أن يكون أيضا كيسا فطنا، ولا يجب أن يلدغ من مأمن .. وأنه يعتقد أن كثرة الكلام في هذه الأمور غير مفيدة .. لكن العمل يكون أكثر فائدة: ((يجب علينا أن نحذر سعدا جدا وفقط)) هكذا ختم كلامه الهامس معهما.

بالرغم من أن سعدا كان ينوي أيضا أن يزور سعدية في بيتها؛ لكي يطمئن على ما حدث لمالها ومزرعة الدواجن .. وماذا فعل زوجها قليل الأصل .. إلا أنه أحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وبعد أن أوقف سيارته النصف نقل أمام بيت سعدية .. إلا أنه وقبل أن يدق جرس بابها استقبلت أذناه صوت كل البنات داخل البيت، وكذلك أمهم القردة كانت تتعالى ضحكاتهن تفاعلا مع أحداث المسلسل الرمضاني الكوميدي الذي يعرضه التليفزيون .. تراجع في الحال .. قفز إلي سيارته، وانطلق بها قبل أن يكتشف وجوده أحد .. فلقد أدرك أن الليلة ستكون ليلة سوداء عليه، وخاصة من زوجته القديمة القردة النكدية .. ولمعت في خاطرة نوال بنضارتها وعبقها حتى وهي حامل في شهورها الأخيرة .. وهمس لنفسه مطمئنا: ((سعدية لديها جمال .. يستطيع أن يساعدها أفضل مني..)).

ثم غرق في التفكير مرة ثانية، وهو ينطلق بسيارته على الطريق المؤدي إلي فاقوس في تلك الحركة التي لعبها على جميع أهل الكفر، وأولهم جمال والعمدة: ((أربعة آلاف جنيه كفيلة بأن تقنع أي متشكك أنني لم أرد إلا الخير لأهل الكفر .. كفيلة بأن تجعلهم يأمنون جانبي، ولا يترصدون خطواتي تجاههم .. وسنري إذا كانت ستقوم في كفر مفتاح مدرسة أخري غير مدرسة سعد)).

الفصل الرابع عشر

يبدو أن بركات شهر رمضان قد حلت بكفر مفتاح لأول مرة منذ فترة بعيدة .. فبينما احتل الكثير من التوجس والشك نفوس أهل القرية-وخاصة الشباب- فيما يمكن أن يدبره سعد لإفساد مشروعهم .. وإذا ما كان سيتفق مع المقاول الذي سيتعهد ببناء المشروع ليخطئ عمدا في التنفيذ .. أو ليدس أسمنتا أو حديدا غير مطابق للمواصفات .. أو للتأخير في التنفيذ بصورة أو بأخرى .. أو سيسعى سعيه لدي معارفه من موظفي الحكومة المرتشين سواء في التربية والتعليم أو القسم الهندسي في مجلس المدينة أو المحافظة .. أو سيقوم بعمل تخريبي أثناء تنفيذ المشروع على أرض الواقع .. أو بأية وسيلة من تلك الوسائل التي خمنها أمام اللجنة التي تم تشكيلها في اليوم التالي لاجتماعهم في الدوار .. المهندس منصور السيد وكذلك الشيخ مأمون والأستاذ جمال .. في اليوم الثالث لشهر رمضان فوجئ أهل الكفر بحلول ضيف بينهم .. كانوا يجلسون إليه لأول مرة مجالسة المعارف والأصدقاء .. بالرغم من أنهم يعرفونه جيدا من قبل .. كان أحيانا يصلي بينهم في صلاة الجمعة، إذا تصادف وجوده في الكفر خلال بعض المناسبات مثل الأعياد وغيرها .. لكن لأول مرة يجلس إليهم ويتناول طعام إفطاره معهم، المهندس مصطفى بركات زوج علية ابنة العمدة، الذي يمتلك شركة مقاولات ضخمة لها سمعتها الطيبة في الإسكندرية والمحافظات المجاورة لها .. علموا أنه جاء هو وأسرته علي غير عادتهم لقضاء بعضا من أيام شهر رمضان في الكفر .. فعندما علمت علية بأن أختها نسمة وزوجها وابنها عمر سيقضون شهر رمضان مع بابا وماما في الكفر .. انتابها حنين جارف لقضاء بعض من أيام رمضان في الكفر، في الريف حيث الحفاوة البالغة بالمناسبات الدينية .. وهزها الحنين لطبلة المسحراتي، التي كانت تبعث الحياة واليقظة في كل الموجودات الراقدة من حولها، عندما كانت طفلة وشابة صغيرة في بيت أبيها ..

تذكرت لعبها، وفوانيس شهر رمضان الملونة مع أختيها نسمة وصفاء .. وتحسرت على هذا الزمن الذي فـــرق الأســـرة ووزعـــها بيـــن محافظات مصر المختلفة .. عرضت على زوجها وولديـــها الفكـــرة فرحبوا بها جدا .. اعتبروها نوعا من تحطيم (روتين) الحياة التــــي ألفوها منذ مدة.

اكتشف أبناء الكفر أن الباشمهندس مصطفي بركـــات أكـــثر تواضعا مما كانوا يعتقدون .. فلقد كان يجلس بينهم بســـيطا هادئـــا مرتديا جلبابا بلديا واسعا فضفاضا مثلما، يرتدي بقيـــة أهـــل الكفـــر والعمدة وجمال .. كان يلبسه باستمتاع وسعادة السائح الذي يطيب لـه أن يقلد أهل البلد الذي يزوره .. لذا ازداد شباب الكفر قربا منه وحبـا له .. وكان طبيعيا أن يثار أمامه موضوع بناء المدرســـة .. فبســط أمامه بكل دقائقه، وكذلك بكل مخاوفهم من الفشل، وبكـــل حرصـــهم على نجاح المشروع .. ودهشوا جميعا تقريبا عندما قال لهم باقتضاب شديد كأنه حكيم يوجز الكلمات المفيدة ((يمكنكم إنجاز البناء بســـرعة وبتكلفة الخامات فقط .. إذا كان لديكم جميعا الإخـــلاص والعزيمـــة والحب لقريتكم)).

لم تكن تلك الكلمات الموجزة بالشافية للهفتهم فـــي معرفـــة الكثير والكثير عن أسرار هذا الموضوع، الذي يتعاملون معه للمـــرة الأولي؛ فانهالت عليه الأسئلة من كل شاب .. كان أكثرهم استفســـارا المهندس منصور السيد والأستاذ جمال .. كان جمال يستفسر منه عن بعض المعلومات العامة، التي يمكن أن تزيح أية عقبة أمام المشروع: مثل كيفية الحصول على الموافقات اللازمة لبناء المدرسة، وكذلـــك التخطيط الهندسي، وكيفية التنفيذ بأقل سعر ممكن، ومدي الدور الذي يمكن أن يؤديه شباب الكفر وكلهم تقريبا عمالة مخلصة، لكنها غـــير مدربة .. كذلك واصل المهندس منصور الاستفسار عن بعض النقـاط الفنية الخاصة بطبيعة التربة في الكفر، وعمق الأساس الذي يمكن أن تحتاجه مدرسة من عشرين فصلا دراسيا وحجرات الإدارة والمخازن

ودورات المياه ستبني – كما تصورها مبدئيا معظم أهل الكفر – من طابقين قابلين للنمو فيما بعد، عند زيادة عدد أبناء الكفر الذين سيقبلون على التعليم الإعدادي والثانوي...

وأخيرا أسفر النقاش بينهم وبين ضيفهم على أنه سيتطوع بعمل الرسوم الهندسية اللازمة .. كذلك طمأنهم منصور بأنه سيتولى اعتمادها من الجهات المختصة .. كما تعهد المهندس مصطفى أيضا بعمل دورة مكثفة لشباب الكفر سواء طلبة أو من الخريجين الذين ينتظرون العمل، أو حتى من الموظفين للتدريب على مختلف أعمال البناء في خلال واحد وعشرين يوما..

ولم يتقاعس أبناء الكفر.. ففي الحال أخذ يسجل كل واحد منهم اسمه في المهن المعمارية التي يحب أن يتدرب عليها .. ما بين أعمال الخرسانة كحداد أو نجار مسلح وأعمال بناء النجارة والبناء والكهرباء والصرف الصحي والبلاط والدهانات.

اقترح عليهم أيضا أن يبدؤوا من الغد في التقدم إلي الجهات المختصة لاستخراج رخصة بناء مصنع طوب أسمنتي صغير .. وأوضح لهم أنه لن يكلفهم معدات كثيرة .. لكن حتى يمكنهم الحصول على الأسمنت المدعم، ويمكنهم توفير الطوب الأسمنتي اللازم للبناء فور وضع الأساس .. ولأنه رجل عملي أعلن أنه صباح الغد سيبدأ في وضع الرسوم الهندسية للمدرسة وملحقاتها .. وجعل من المهندس منصور المهندس التنفيذي المسئول .. وأنه خلال أسبوع على الأكثر سيكون قد أجري كل اتصالاته مع أصدقائه من المهندسين المسئولين عن مراكز التدريب التابعة لوزارة الإنشاء والتعمير لعمل الدورة المكثفة لهم ((لكن بالنسبة للأخوة الذين سيتولون العمل في مصنع الطوب الأسمنتي يمكنهم من الغد لو كان لديهم الاستعداد التوجه إلي الإسكندرية ومعهم خطاب مني إلي صديقي .. وسيتم لهم التدريب على استخدام المكابس والقوالب اللازمة خلال أسبوع)).

في الحقيقة دبت روح طموحة متوهجة في أجساد شباب الكفر لسماعهم لكل اقتراح متفائل للباشمهندس مصطفي .. بعضهم – بينه وبين نفسه – تجاوز حد التعاون مع بقية أهله في بناء المدرسة إلى ركوب طموحه الفوار ليستغل هذه المهنة التي سيتدرب عليها بطريقة علمية وفنية نظيفة، ويتقنها لكي يعمل بها بعد ذلك في الخارج .. بينما البعض الآخر أدرك أن هذا المهندس صهر العمدة قد أرسلته العناية الإلهية إليهم في الوقت المناسب، قبل أن يقتلهم الاكتئاب الناجم عن الفراغ والفقر والملل واليأس .. وقرر بينه وبين نفسه أنه مجرد أن يؤدي واجبه الحتمي تجاه مدرسة الكفر يحصل على إجازة من عمله كموظف حكومة ويشارك في أعمال المعمار .. لقد عرف أن يومية عامل البلاط تجاوزت العشرين جنيها .. بينما يتقاضى هو في الشهر الواحد ما يقل عن الأربعين جنيها بعد معاناة دراسية دامت أكثر من اثنتي عشرة سنة دراسية حتى حصل على (الدبلوم).

لكن الشيء الذي أثار دهشة الجميع، هو إصرار الشيخ مأمون على اشتراكه في تعلم مهنة التوصيلات الكهربية داخل المنازل .. ولم يسلم الأستاذ جمال من هذه الدهشة وسارع بسؤاله: ((كيف وأنت رجل دين، ومدرس إعدادي تفكر في مثل هذه المهنة؟!!))

كان رد مأمون على أستاذه حاسما: ((لقد كان رجل الدين المسلم يعتمد على صنعة أو تجارة تدر عليه ربحا كافيا لكي يعيش كريما بين الناس .. لم يكن في يوم من الأيام يتسول بعلمه أو يشتري بآيات الله ثمنا قليلا .. وكلنا يذكر الإمام أبا حنيفة وغيره...)) وبعد برهة صمت فيها، أضاف موضحا: ((لقد اخترت هذه المهنة بالذات؛ لأنها سهلة ويمكن العمل بها بعد انتهاء العمل في المدرسة .. فهي ليست مرتبطة بوقت معين .. كما أنها تتم داخل المنازل بعيدا عن أعين الناس، ولا تتناقض مع عملي كمعلم داخل الصف.)).

بعد ذلك لم يكن غريبا أن يتدفق كل الموظفين من أبناء القرية وخاصة المعلمين إلي مركز التدريب - بعد أن حصلوا على إجازتهم السنوية .. كل واحد منهم اختار المهنة التي استشعر أنها تفيده وتناسبه أكثر من غيرها .. ولم يعد أحد منهم يشعر بالخذي أو الخجل عندما يراه أي إنسان وهو يعمل .. صارت كل أمنيتهم أن تصدر الدولة قانونا يبيح لهم العمل بعد أوقات العمل الرسمي؛ حتى يشعروا بالأمان أثناء ممارسة أعمالهم الشريفة الإضافية، بدلا من انجرافهم بطريقة أو بأخرى إلي مد يدهم إلي المواطنين الذين يترددون عليهم طلبا للرشوة .. نفس هذه الرغبة قالوا بها علنا في حضور الأستاذ عبد الفتاح حسن الصحفي وكذلك الأستاذ جمال صفي الدين .. وكان من حسن حظهما أن ومضت فكرة مشتركة في عقليهما مما جعلت كل منهما ينظر إلي الآخر بإمعان وكأنه، يتأكد أنه ينشغل الآن بالفكرة نفسها، التي تشغل الآخر .. وكان عبد الفتاح سباقا إلي استطلاع رأي جمال في هذا الموضوع: ((ما رأيك يا أستاذ لو فكرت في مناقشة هذا القانون على صفحات الجرائد؟ .. ألست معي بأنه لم يعد يتناسب وظروف الموظف وأعباء الحياة التي صارت تلتهمه حتى العظام؟!!))

أومأ إليه جمال موافقا، وأضاف موضحا: ((هذا القانون كان صالحا عندما كان يحافظ على كرامة الموظف والوظيفة العامة .. حينما كان الدخل مناسبا ويوفر الحياة الكريمة لرجال الإدارة .. لكن الآن - في رأيي الشخصي - يعتبر هذا القانون عقبة في طريق التنمية والتطوير سواء الاقتصادي أو الاجتماعي .. فضلا عن تحريض الموظف بشكل غير مباشر على ارتكاب جرائم الرشوة والاختلاس والسرقة .. فالغلاء فاحش والمرتب محدود .. والقانون يحول دون السعي طلبا للرزق الحلال!!))

أضاف الصحفي مؤكدا: ((إن في القاهرة معظم الموظفين يمارسون أعمالا حرة بعد أوقات العمل الرسمية .. والحكومة تعرف ذلك .. لكنها الخشية من تغيير التقاليد الوظيفية – في اعتقادي – هي التي تحول دون إصدار قانون جديد يسمح بأن يمارس الموظف عملا شريفا بجانب عمله الحكومي))

واتفق الصحفي أنه سيشن حملة صحفية على هذه المادة من قانون العاملين المدنيين بالدولة .. وأنه لن يهدأ حتى تستجيب جهة الاختصاص .. كما طلب من الأستاذ جمال أن يعينه بالآراء القانونية التي تيسر له الوصول إلي هدفه بأفضل الوسائل وأسرعها .. كما طلب من الأستاذ جمال صورة شخصية له .. لأنه سيبدأ في كتابة التحقيق الأول من الليلة .. وسيبدأ من هنا .. من هموم موظفي كفر مفتاح.

كان لمعان الإحساس بالرضا والسعادة ينساب من عيني الحاج أيوب، وتنسكب على بقية تقاطيع وجهه المشوب بالسمرة، وصار يخالطه حمرة ودموية فتزيده إشراقا وبهاء ، فها هو يجلس بين بناته وأحفاده الذين يتواثبون من حوله في خفة ومرح وبراءة مثل الطيور الأليفة بيدهم فوانيس رمضان الكهربية الملونة .. كان أكثرهم اغتباطا وانبهارا بتلك المشاهد الجديدة عليه هو عمر ابن نسمة .. وكان خفيف الظل يثير النظر إليه الابتسامة على الشفتين والرغبة في ضمه وتقبيله .. وكان يود الحاج أيوب ذلك بين وقت وآخر كعادته .. لكنه اضطر بحكمة إلي الإقلاع عن ذلك في حضور حفيديه الآخرين من ابنته علية؛ حتى لا يشعروا بالغيرة من عمر ، وحتى لا تحس علية بأن أباها يحب ابن نسمة أكثر من أولادها هي .. لذا حاول أن يقتلع نظراته التي تغافله وتصل إلي عمر ، وركز كل اهتمامه على الحديث الذي يدور بين جمال والمهندس مصطفى زوج ابنته علية، فلقد كان جمال يبدي إعجابه بلمسة السحر التي مس بها المهندس مصطفى الكفر وشبابه .. وكيف أنه فجر طموحهم وهزهم هزا من

الأعماق .. ابتسم له المهندس مصطفي بتواضـــــع ولطـــف، وقـــال مستنتجا: ((يبدو أن الشباب هنا يتأجج بالطاقة والرغبة في العطاء .. لكنهم كانوا لا يعرفون الطريق الذي يوصلهم إلي استثمار طاقاتهم .. بعكس أولاد المدينة .. كل واحد منهم يمكنه الاعتماد على نفسه.))

وتدخل العمدة مبديا مشاعر الود والامتنان تجـــاه المـــهندس مصطفي: ((لقد حللت لنا مشكلة من أصعب المشاكل التي واجـــهت شباب الكفر .. لكن أملنا كبير فيك يا مصطفي يا ابني أن تظل معنـــا حتى انتهاء بناء المدرسة تماما.))

أجابه المهندس مصطفي بإخلاص: ((بالطبع يا عمي الحـــاج .. لن أتخلى عن الكفر حتى تقام فيها أجمل مدرسة .. هذا أقل واجب على تجاهكم وتجاه الكفر .. لقد أحسست أني مقصر في حقكم تمامـــا .. عندما قارنت نفسي بالأستاذ جمال، وبما يقوم به تجاه أهلنا هنا.))

رد العمدة بسعادة مطلقة: ((بارك الله فيكما .. لقد شـــرفتماني ورفعتما رأسي في عيون أهلي هنا في الكفر .. وأقول لكما الحقيقـــة لو كان لي أولاد من صلبي لما حققا لي مثل هذه السعادة والفخر الذي يجتاح كل كياني الآن.))

في صبيحة أول أيام عيد الفطر المبارك سيطرت الفكرة التي كانت تراود جمالا منذ مدة على كل تفكيره .. لم يشأ أن يضيع هذه الفرصة التي قلما تتوفر للكفر مرة ثانية؛ ففي العيد يجتمع كل الناس في الدوار لتبادل التهنئة بالعيد .. معظم العاملين بالخارج يفضلون حضور العيد مع عائلاتهم .. كذلك أولاد الكفر الذين أخذوا على عاتقهم تعلم المهن المعمارية في الدورة المكثفة التي دبرها لهم المهندس مصطفي قد انتهوا منها تقريبا .. وماذا يفعلون بعد أن ينتهوا من بناء المدرسة؟!! .. هل سيتشتتون في أنحاء الأرض سواء بالسفر إلي الخارج .. أو الإقامة في المدن حيث يوجد سوق عمالة المعمار؟!! .. ثم إن بقية مشاكل الكفر لم تحل .. مشكلة الأرض الزراعية التي هجرها العمال .. كذلك مشكلة هؤلاء الذين يسافرون إلي الخارج ويرسلون أموالهم إلي أهلهم في الكفر فتضيع منهم هباء ما بين الإنفاق الزائد إلي حد التبذير .. أو شراء أشياء كمالية مثل التليفزيون الملون .. أو يقتنصها منهم أقرباؤهم مثلما حدث مع سعدية وأبيها، أو ما حدث مع جمعة أبي علاوي الذي أخذ زوج أخته تعبه وثمن غربته على سبيل القرض أولا، ثم أراد أن يستولي عليها بدون وجه حق، ((لولا أن تدخلنا وحفظنا حقه)).

كانت الفكرة التي نمت وترعرعت في ذهن جمال شيئا فشيئا، هي أن ينشئ أبناء كفر مفتاح مؤسسة استثمارية قاصرة عليهم فقط في بادئ الأمر .. هذه المؤسسة سوف تستثمر أهم عنصري الثروة الحقيقة في كفر مفتاح طاقة الشباب المبددة ، وأموال العاملين في الخارج المهدرة .. ومن خلال هذه المؤسسة يتم الاستثمار في ميدانين فقط كنقطة للبداية..الأول هو الميدان المعماري وخاصة بعد أن يصير لديهم العمالة المدربة في مختلف مجالات المعمار، وأيضا مع

وجود المهندس المدني..وبالنسبة للمجال الزراعي سيقوم على استغلال الميكنة الزراعية لتعويض نقص العمالة الزراعية المهاجرة.

عندما عرض جمال فكرته في إنشاء (المؤسسة الاستثمارية لأبناء كفر مفتاح) على أبناء الكفر.. حملقت فيه جميع العيون الموجودة في الدوار تقريبا .. وتراوحت الحملقة بين الإعجاب بالفكرة .. وبين التوجس .. وكان أكثرهم توجسا هم العاملون بالخارج .. فأي مؤسسة استثمارية هذه التي يمكن أن يأمنوا على أموالهم فيها؟! .. في الحقيقة هم يثقون تماما في جمال والعمدة .. لكن كيف يثقون بمن سيتحمل عبء استثمار مالهم من أبناء الكفر؟ .. وفيما ستستثمر؟ .. وكيف سيكون توزيع الأرباح؟ .. وما هي الضمانات الكافية التي ستكفل لهم الحصول على حقوقهم وعدم ضياع أموالهم؟!! .. أسئلة كثيرة متشككة كانت تثور في أعماقهم .. وكان لزاما عليهم قبل الموافقة على الفكرة، أن يطرحوها على جمال نفسه صاحب الفكرة .. وهو المحامي الذي يمكن أن يفيدهم في هذا الأمر .. فلا أحد منهم يكره أن يستثمر أمواله ويشغلها، وهي حتما ستدر ربحا أكثر من ربح البنك الضئيل والمشوب بالحرام والربا .. لكن في ذات الوقت، لا يجب أن ينسى أحد أن مال الإنسان عزيز عليه .. ولن يفرط فيه ببساطة أو بمجرد كلمة شرف .. ((فما هي الضمانات يا أستاذ التي تحفظ لنا أموالنا؟!!))

في الحقيقة كان جمال مستعدا لأي سؤال .. فلقد كان الموضوع شبه مدروس منه دراسة كاملة .. قام بتوضيح تصوره للطريقة التي ستضمن حقوقهم، وكذلك للأسلوب الذي ستدار به المؤسسة .. وكيف أنه سيكون لها مجلس إدارة، وسيتم تشكيله بالانتخاب من بين المشتركين في المشروع، نصف العدد من المشتركين بالجهد والعمل، والنصف الآخر من المشتركين بالمال أو ممن يوكلونهم –إذا كانوا خارج مصر– .. ويعقد هذا المجلس مرة كل أسبوع .. كل يوم جمعة مثلا .. وكذلك عند الضرورة .. وهذا

المجلس هو الذي سيختص بإدارة أوجه النشاط المختلفة .. وهو الذي سيقبل العمل في المشروعات المختلفة أو يرفضها ويوقع الاتفاقات المختلفة .. وهو الذي سيكون مسئولاً عن تقديم الحساب الختامي السنوي لجميع المشتركين في المؤسسة من أهل الكفر .. وهو ما يسمي بالجمعية العامة، وسيكون الربح الصافي مناصفة بين أصحاب المال وبين المشتركين بالجهد والنشاط .. ولكن نظراً لطبيعة المؤسسة يمكننا إثبات شرط ينص على عدم جواز سحب أي مبلغ من المؤسسة إلا بعد عامين بالتحديد .. حتى يمكنها الوقوف على قدميها؛ ويمكن تسديد قيمة أدوات الإنتاج التي سيتم شراؤها مثل منجرة خشب كهربائية مثلاً .. كذلك مصنع مناسب لضرب الطوب الأسمنتي .. وخاصة بعد أن أصدرت الحكومة قراراتها بوقف إنتاج الطوب الأحمر من الطمي والتراب الأسود .. وعدم تجريف التربة الزراعية .. كما فعل في السابق سعد أبو رزق .. ثم شراء الأدوات الزراعية اللازمة لكي يمارس القسم الزراعي نشاطه في الميكنة الزراعية واستغلال إمكانيات الكفر الزراعية بكاملها .. بالطبع لن ندخل أي من البنوك معنا في المشروع .. سيتدخل كبار الموسرين في الكفر لضمان ثبات وبقاء المشروع .. أمثال عمي الحاج أيوب مثلاً .. وكل من يحب خير هذا الكفر..

رفع الحاج أيوب صوته مؤيداً لكلام جمال وفكرته: ((أنا موافق على أي عمل يعود بالنفع على الكفر .. وأنا مستعد لضمان المشروع بكل ما أملك .. بشرط أن يكون المشروع في أساسه مبنياً على المضاربة الإسلامية .. بمعني أن يكون هناك احتمال للربح والخسارة .. حتى يبارك الله فيه .. لكنني فقط .. ومن يريد معي في حالة حدوث خسارة بسبب إهمال جسيم من جانب القائمين على المشروع..))

وهنا قاطعه جمال موضحاً نقطة هامة: ((وهذا الشرط بالطبع يترتب عليه أن يكون لعمي الحاج وكل من سيشتركون معه في

ضمان المؤسسة حق رقابي في أي وقت للتأكد من حسن سير عملية الاستثمار.))

وصاح أحد المعجبين بالفكرة مؤيداً: ((على أي حال يا أستاذ الفكرة ممتازة .. ولو تمت سيكون كفر مفتاح هو الأول على مستوي مصر الذي تمكن من حل مشكلاته كلها .. يمكنك يا أستاذ دراسة الموضوع بشكل أوفي، وتضعه في صيغته القانونية المناسبة لأنك ستكون –بالطبع– المستشار القانوني للمؤسسة))

وتعالت بعض الأصوات مؤيدة بإخلاص لهذا الرأي .. ووضح من بينها صوت الشيخ مأمون، الذي راح يؤكد على رأي العمدة بضرورة أن تبنى الفكرة الأساسية للمؤسسة المقترحة على المضاربة الإسلامية .. بعيداً عن الأفكار الربوية التي خربت بيوتنا .. وجعل هذا الشرط هو شرط أساسي في المؤسسة.

فأجابهم الأستاذ جمال مرحباً: ((إذا كان هذا هو رأي أغلبية أهل الكفر فأنا موافق .. وخلال أيام – إن شاء الله – سأكون قد انتهيت بشكل نهائي من صياغة فكرة (مؤسسة كفر مفتاح للاستثمار) في شكلها القانوني؛ حتى يلتزم قانونياً كل عضو في المؤسسة .. ولكن أحب أن أوضح نقطة هامة .. الالتزام القانوني في مؤسسة كفر مفتاح ينبغي أن يكون آخر أنواع الالتزام .. لأن طبيعة الإنشاء تفترض أن يكون الالتزام الأخلاقي والدافع الشخصي لنجاح المؤسسة هما الأولى بالاعتبار من الالتزام القانوني .. ويجب أن نعلم جميعاً .. أن النجاح سيكون نتيجة حتمية لعزيمتنا وإخلاصنا وأمانتنا وإصرارنا نحن أبناء الكفر على النجاح))

تعالت الأصوات مرحبة ومؤيدة .. وكانت النشوة قد أخذت بكلمات معظم الحاضرين من شباب الكفر .. بدؤوا يدركون أن كل مشاكلهم قد اقتربت من الحل .. كان كل منهم يمني نفسه بأشياء

كثيرة .. وخاصة أولئك الذين دقوا جميع الأبواب بحثاً عن العمل بعد حصولهم على شهاداتهم، ولم يستجب لهم .. وكذلك حتى الموظفين الذين طالما اشتكوا من ضآلة الراتب، وزيادة الأسعار بصورة جنونية .. كلهم استبشروا خيراً كثيراً من وراء هذه الفكرة .. حتى هؤلاء الذين سيشتركون بأموالهم بدأ يتسرب إلى قلوبهم الإحساس بالأمان منذ أن أعلن الحاج أيوب بنفسه بأنه الضامن لأموالهم في حالة ثبات أي خطأ جسيم أو إهمال متعمد في المؤسسة .. ولم يقلقهم كثيراً مسألة المضاربة واحتمال المكسب أو الخسارة .. فهم يعرفون أنه في هذه الأيام لا توجد مشروعات يخلص لها أصحابها وتخسر أبداً .. ثم إن الرقابة التي سيقوم بها الضامنون من كبار الكفر ستكون بمثابة العين الساهرة على مصلحة جميع أعضاء المؤسسة، سواء من اشترك بالمال أو بالجهد .. وحتماً سيبذل الجميع أقصى ما يستطيعون ما دام صار معروفاً لديهم أن الربح سيعود عليهم في النهاية .. فهم شركاء فيه بالنصف..

وأذهل الجميع وهم في مجلسهم المتفائل المستبشر هذا سماع صوت زغاريد نسائية .. وقبل أن يستديروا بعيونهم المستفسرة جهة الباب الخارجي للدوار، متسائلين عن المناسبة السعيدة، التي استدعت إطلاق كل هذه الزغاريد الملتهبة دفعة واحدة وبشكل متواصل!! .. فليس الموسم هو موسم شهادات دراسية .. فالثانوية العامة والثانويات الفنية ما زال على ظهورها أكثر من ثلاثة أسابيع، كما أعلنت الجرائد منذ أيام .. وقبل أن يستطرد الجالسون والمتشحون بفرحة العيد ونشوة التفكير في المشروع الجديد في التخمين عن السبب .. اقتحمت عليهم الدوار أم سعدية .. زوجة سعد القديمة، وقد أمسكت في يدها اليسرى بجريدة يومية .. بينما واصلت وضع يدها اليمنى أعلى شفتها العليا وقد غطاها العرق تماما .. وبعد أن كررت الزغاريد مرة ثانية وثالثة ورابعة بطريقة هستيرية .. لدرجة أن البعض قد ظن بأن المرأة قد فقدت عقلها تماما .. فشعرها الذي فر من تحت غطاء رأسها في شكل يايات من سلك ويتأرجح بعصبية حول خديها بشكل

جد مقزز لم تنتبه إليه .. وصدرها المفتوح بصورة منفرة، ليفضح جفاف صدرها الخشبي .. لم تلتفت إليه .. كل ما كانت تقوم به بانفعال وفرحة مجنونة إلي حد البكاء والضحك في الوقت نفسه، هو الإشارة بإصرار إلى شئ مكتوب في الجريدة، وأخذت تصيح في كل الحضور .. كانت تصرخ في وجه كل من تمر به بشكل هستيري: ((ألم أقل لكم أن الذي يظلم الولايا لن يكسب أبدا؟!!..ألم أقل لكم أن الظلم وخاصة للنساء عواقبه وخيمة .. خذوا عبرة من سعد الأقرع أكلني لحما ورماني عظاما .. ومن الكأس نفسه ربنا سقاه..كل الجرايد كاتبه عنه وعن زوجته الجديدة .. كان عايز يخالف أمر ربنا ويجيب ولد .. انظروا إلي الصورة .. ربنا أعطاه ست بنات توائم .. يعني ربنا قال له إذا كنت تضايقت من الخمس بنات أنا بأعطيك ست بنات))

وواصلت الزغردة إلي درجة الرقص الشامت فيما أصاب سعد .. وراحت تنقل الصحيفة من يد إلي يد .. كانت حريصة على أن يقرأها ويشاهد الصورة كل أهل البلد.

وكانت الجرائد قد نشرت بالفعل هذا الخبر .. وقد علقت عليه بأن البنات الست يتمتعن بصحة جيدة، وأن وزنهم طبيعي وهي تعد بحق من الحالات النادرة .. وأخذ الحاضرون يمصمصون شفاههم تحسرا على تصرفات سعد .. وكذلك تعاطفا مع زوجته، التي أوشكت أن تفقد عقلها شماتة في زوجها خائن العشرة، الذي أفتري عليها، وأفتري على ابنتها، الذي سرق منها معظم مالها، لكي يعطيه لأم الولد .. لكن ربنا فضحه .. وخيب أمله وأرسل له ست بنات.

وراحت تصرخ كالملسوعة: ((نفسي أشوف وشك يا سعد الآن ..نفسي أشوف وشك يا ظالم..))

وأخيرا نهض جمال إليها لكي يهدئها .. وشيئا فشيئا اسـتطاع أن يقنعها بالعودة إلي بيتها، أو إلي بيت سعدية حتى تستريح وتهدأ .. مذكرا بهدوء أن هذا لا يليق بها أمام الناس .

لم تكن هذه الحالة الهستيرية، التي انتابت أم سعدية، كرد فعل للشماتة المكثفة، التي كانت تختزنها في تجاويف قلبها منذ أن تـزوج عليها سعد وهجرها، بعد أن بصق على وجهـها، كمكافـأة لنهايـة خدمتها له وعشرتها إياه لمدة زادت عن الخمس والعشرين سنة .. لم تكن هي المرة الأخيرة التي زغردت فيها بجنون .. فبعدهـا بشـهر تقريبا طافت في الكفر مزغردة مصفقة بيديها معلنة شماتتها بوضوح، وتشفى في الظالم الذي انهارت مدرسته فجأة وأثناء الليل بسبب ظلمه .. ولقد حمد أهل الكفر ربهم كثيرا؛ لأن المدرسة قد سقطت في فـترة العطلة الدراسية .. وكانت المدرسة خالية تماما من أي إنسان..

وكانت سعادة شباب البلد مضاعفة؛ لأن الله وقف بجوارهم .. في اللحظة التي بدؤوا فيها العمل فعلا في المدرسة الجديدة.. كـانوا يشعرون بقلق حقيقي من التصرف الذي قد يبيته سعد؛ حتى يؤخـر بناء المدرسة الجديدة ؛ لكي تتاح الفرصة لبقاء مدرسته لأطول فـترة ممكنة.

لكن انهيار المدرسة المفاجئ، جاء محطما لما بقي من شرور سعد، التي هدها بعض الشيء إنجابه للست بنات ولم يأت الولـد .. ولم يعد لديه رغبة لمقابلة الناس بعدها .. كما أنه لم يعد يـأتي إلـى الكفر .. وقال بعض من رآه أنه يسير في الطريق كالمذهول .. ولـم يعد يطيب له الجلوس على الدكة التي كان يستريح عليها سابقا معظم وقته أمام المستودع .. كما أن جسده أصابه الكثير مـن النحـول .. وصار من تقع عيناه عليه يتشكك فيما إذا كان هذا هو سعد الأقرع أم لا .. لذا عم بين شباب الكفر إحساس بالاطمئنان إلي حد كبير بعـد انهيار مدرسة سعد .. وتأكد للناس كل ما قاله لهم الشيخ مـأمون ذات يوم جمعة، من أن سعد يعطي رشوة للمهندس المختص؛ حتى يكتسب

التقارير الكاذبة التي تفيد بصلاحية البناء .. وزاد إعجابهم بمـــأمون وجرأته وكذلك شجاعته بالحق .. وقالوا لو لم يعلن مأمون الموقـــف صراحة في حضور الجميع لضاع أولادنا تحت الأنقاض .. ولو لــم يسارع ويتبرع العمدة بقطعة الأرض لبناء المدرسة، ويتطوع كل أهل الكفر ببناء المدرسة الجديدة لتشرد أبناؤنا بين المدارس التي تحيـــط بالكفر .. وسيضطرون إلي السير الكيلومترات الطويلة في الذهـــاب والإياب

ومرة ثالثة ملأت أم سعدية مساء الكفر كله بالزغاريد الشامتة .. مواصلة التوسل إلي الله، بأن يواصل انتقامه من الظالمين، وأولهم سعد الأقرع .. وكانت هذه المرة عندما قامت الشرطة بالقبض عليـــه ووضعه في السجن؛ لأنه لم ينصع لأوامر الحكومة بـــالتوقف عـــن إنتاج الطوب الأحمر، بالرغم من المهلة التي منحتها له من قبل حتى يحول نشاطه إلي الطوب الطفلي أو الأسمنتي البسيط الـــذي أنشـــأه شباب الكفر كباكورة لنشاط مؤسسة كفر مفتاح للاســـتثمار – ينتـــج جميع أنواع الطوب الأسمنتي المناسب، والذي كان يخضعه المـــهندس مصطفي– والذي اعتاد على زيارة الكفر هو وأسرته كل يوم جمعة– للاختبار ليتأكد من مدي صلاحيته .. وكان أيضا يتـــابع نشـــاطهم، وعلى وجه الخصوص في بناء المدرسة، الذي كان ينـــهض فـــوق الأرض بصحة وعافية تثير الإعجاب .. ولم يكف الأستاذ عبد الفتاح حسن الصحفي عن عمل التحقيقات الصحفية، حـــول قيمـــة المـــواد الموجودة في قانون العاملين المدنيين بالدولة، والتي وتمنع مزاولـــة موظف الحكومة لعمل إضافي بعد أوقات العمل الرســـمية .. وبـــدأ الناس يتعاطفون مع وجهة نظره، وكذلك قال بها الكثير من رجـــال القانون والمسئولين الذين استضافهم في تحقيقاته الصحفية .. وصـــار هناك ما يشبه القناعة لدى الغالبية بعدم جدوى هذه المادة في قـــانون العاملين .. كما حذر بعض القانونيين من تحوير هذه المادة وتعديلـــها إلي ((يجوز للسلطة المختصة أن توافق للعامل على ممارسة بعـــض الأعمال الأخرى في غير أوقات العمل الرسمية)).. لأن من رأيهم أن

المنع سيكون أكثر رحمة من جعل الموافقة جوازية .. حيث أنـــها – من وجهة نظرهم – ستفتح باب النفاق و الرياء والرشـــوة وشـــراء الضمائر في سوق الوظيفة العامة .. مثلما هو الحـــال فـــي جـــواز الموافقة للعامل على التعاقد أو السفر إلى الخـــارج .. ولقـــد تعمـــد الأستاذ عبد الفتاح حسن أن يبرز هذه الآراء بالبنط الكبير؛ حتى تقـــع عليها عيون من يهمه الأمر، وظهرت صورة جمال صفـــي الديـــن المحامي في الصحف في تحقيقين متشابهين في صحيفتين مختلفتين .. وكان الصحفي الثاني الذي أثار الموضوع معه واحـــدا مـــن أبنـــاء المنصورة الموجود بها مكتب جمال.

ومع تطور الأيام كان كفر مفتاح بكباره وصغاره يتحول إلي خلية من النحل في نشاطه ونظامه وإصراره على النجاح .. كـــانت المدرسة يوما بعد يوم تنبثق من باطن الأرض، التي تبرع بها الحـــاج أيوب .. كانت تنمو وتنمو في عيون أهل الكفر جميعهم .. يشـــعرون بها كأنها طفلتهم جميعا .. الوليدة التي رضعت من عرقهم جميعـــا .. ويتناوبون الحراسة عليها ليل نهار .. فما زال ماثلا في داخلهم بعض الخوف من حقد سعد الذي انهار تماما مثل مدرسته.. لكن حتى مـــع ذلك لا يجب أن يؤمن جانبه أبدا .. فالنباتات الشوكية المؤذيـــة هـــي أكثر النباتات تحملا للكوارث، وقسوة الظـــروف والبقـــاء متحفـــزة منتظرة اللحظة التي تطعن أي مخلوق لا ينتبه إليها..

ولم ينقطع الصحفي عبد الفتاح عن زيارة الكفر .. كان معهم بين وقت وآخر يصور إنجازاتهم وعزيمتهم ورغبتهم في النجـــاح .. كان يصورها بالكاميرات وبقلمه .. كان يلفت الأنظـــار إلـــي هـــذا الإعجاز الذي يتخلق في قرية منسية متاخمة لصحراء الصالحيـــة .. وكيف يتم العمل فيها ليل نهار .. وكيف أنهم يعتبرون أنفســـهم فـــي سباق حقيقي مع الزمن .. ولم يكتف بالكاميرا العادية بل كان يحضر كاميرا فيديو يسجل بها مراحل إنشاء المدرسة لحظة بلحظة .. فقـــد فكر أن يعد برنامجا تليفزيونيا عن تجربة أهل كفر مفتاح الرائدة..

وتم له ما أراد .. حيث أن التليفزيون العربي كان في صحبة وزير التربية والتعليم، الذي كان يتابع إنشاء المدرسة مثل بقية المواطنين في الصحيفة التي يعمل بها عبد الفتاح .. ونمت الرغبة في نفسه تشجيعا لأهل هذا الكفر النشط الطموح؛ ولكي يكون ذلك تشجيعا لغيرهم في التخفيف عن كاهل الحكومة وبناء المدارس بالتعاون والمجهود الذاتي .. لذا قرر أن يشارك بنفسه في افتتاح المدرسة الجديدة بكفر مفتاح .. وأعطي أوامره بسرعة تأثيث المدرسة بأحدث الأثاث .. وعرض الافتتاح على شاشة التليفزيون .. وكانت سعادة الناس في كفر مفتاح بلا حدود، وهم يشاهدون أنفسهم في التليفزيون .. كان الأطفال والكبار يتصايحون فرحا، وكان كل منهم يشير إلي صورته في التليفزيون ((ها أنا..ها أنا!!)) .. وشاهدوا بسعادة وفخر الحديث الذي أدلى به الأستاذ جمال المحامي إلي التليفزيون .. وكلهم أجمعوا على أنه كان أجمل وأكثر لباقة من مذيع التليفزيون، الذي كان يجري معه الحديث حول تجربة كفر مفتاح في مجال بناء المدرسة بأيدي أبنائها .. كذلك تجربتهم الجديدة الرائدة في مجال الاستثمار المزدوج للطاقات المحلية، وأموال العاملين بالخارج من أبناء الكفر .. بالفعل أثار إعجاب كل من شاهده .. ولذا قال أكثر من واحد أنه يصلح لأن يكون وزيرا .. أما زوجته نسمة التي كانت أكثر الناس سعادة به فكانت تكرر له دائما أنه يصلح لأن يكون رئيسا للجمهورية .. فهتف ضاحكا: ((رئيس جمهورية مرة واحدة!!..القرد في عين زوجته غزاله؟!!))

فاستنكرت منه ذلك بشدة، وأقسمت له بإخلاص بأنه أفضل من يمثل مصر كرئيس لها .. أما المشاهدون في الأماكن الأخرى، والذين لا يعرفون شيئا عن كفر مفتاح، فقد أعجبهم جدا المشهد الذي كان كل الفلاحين بحميرهم يتسابقون في حفر أساس المدرسة .. أعجبهم جدا هذا العدد الهائل النشيط من الحمير التي تحمل أتربة الحفر فوق ظهورها كانت تتحرك بنشاط وخفة .. ولكأن الحمير هي

الأخرى كانت تشارك الأطفال الذين يقودونها في فرحتهم وسعادتهم بالمدرسة الجديدة – واستضاف التليفزيون المهندس مصطفي الذي أكد أن العمل تم في هذه المدرسة في وقت قياسي .. لا يمكن أن يتحقق مثله في أي مكان في العالم .. ويكفي أن يعلم الناس أن هؤلاء الذين وقع على عاتقهم إنجازه جلهم .. إن لم يكن كلهم من الشباب المتعلم سواء طلبة أو موظفين .. لم يحصلوا إلا على دورة مكثفة في المهنة التي أحبها كل منهم .. ومع ذلك فلقد تم لهم بالإرادة والعزم والتصميم أن يحققوا المعجزة))

في الوقت نفسه الذي كان فيه الجناح المعماري (لمؤسسة كفر مفتاح للاستثمار) يناضل ليل نهار لإنجاز المدرسة بطريقة مشرفة وسريعة .. حتى يتمكن أبناء الكفر في المرحلتين الإعدادية والثانوية استقبال العام الجديد فيها .. كان الجناح الاستثماري الزراعي قد تقدم بعرض وفكرة مبتكرة لمجلس الإدارة، وكان معهم جمال، فقد رأى البعض إمكانية استغلال الخمسة فدن التي تمتلكها سعدية بنت سعد .. في عمل مزارع سمكية .. فلقد جرفهم سعد منذ سنوات، وتركهم لابنته مغمورين بالمياه الراكدة، التي يرتع فوقها جيوش من البعوض الذي يهاجم سكان الكفر وتنقل لهم الملاريا..ووافق مجلس الإدارة.

تطوع جمال بطرح الفكرة على سعدية، لاستئجار الخمس فدن لهذا الغرض، ولم يجد جمال أية صعوبة في إقناع سعدية .. فلقد وافقت في الحال .. بعد أن عرضت عليه فكرة جديدة .. وهي أن يستأجروا منها مزرعة الدواجن .. فهي لا تحتمل التعب .. وزوجها هجرها، وهي لا تسعى إلي إعادته .. لكنها قررت أن تستكمل تعليمها ، وهي بالفعل قد جهزت كتب الثانوية العامة القسم الأدبي نظام الثلاث سنوات .. فلديها رغبة قوية في الانتساب إلي كلية الحقوق لأن العمل في المحاماة يستهويها .. وفي التو رحب جمال بالفكرة .. ووعد أن يعرض أمر استئجار مزرعة الدواجن على مجلس إدارة المؤسسة .. وأما بالنسبة لموضوع الاستذكار فهو يؤيدها تماما ..

وأعلن لها بإخلاص أنه في خدمتها في أية مساعدة لتحقيق هذا الأمل .. وعرض عليها في الوقت نفسه أن يتوسط لإصلاح بينها وبين زوجها .. لكنها رفضت بشدة .. مذكرة إياه بما فعله معها.

وتم للجناح الزراعي استئجار المزرعة أيضا .. وبدأ يمارس نشاطه في مجال الميكنة الزراعية .. واستطاع منذ السنة الأولي أن يحل كل مشاكل كفر مفتاح الزراعية .. مما دفعهم إلي طرح فكرة جريئة على مجلس إدارة المؤسسة، وهي ممارسة النشاط في الأراضي الصحراوية القريبة منهم .. فلقد فكروا في استصلاح خمسمائة فدان في الصحراء .. لكن مجلس الإدارة أجل البت في هذا الموضوع إلي العام القادم .. وحتى يعرض الأمر برمته على الجمعية العامة؛ وحتى يمكن توفير المال اللازم للبدء في مثل هذا المشروع الضخم ...

تمت